
د. أحمد خالد توفيق
مشروع القرن الثقافي
روايات مصرية للجيب
في كل رواية متعة دائمة
49
السُّعار
سافاري
Looloo
www.looloolibrary.com

مقـــدمـة

اسـمى (علاء عبد العظيم) .. طبيب مصرى شـــاب يجاهد ـ كما يقول الغلاف ـ كى يبقى حيًّا ويبقى طبيبًا ..

وحـــدة (سافارى) هى البطـــل الحقيقى لهـــذه القصص ، و(ســـافارى) مصطلح غربى معناه (صيد الوحوش فى أدغال أفريقيا) وهو محرف عن لفظة (سفرية) العربية ..

لاحظت أن أكثر الأصدقاء يضيفون حرف ألف بين الـــراء والياء لتتحول الكلمة إلى (سافاراى) .. لا أعرف فى الحقيقـــة سبب هـــذا الخطـــأ ، لكنــــه خطأ شـــائع شـــبيه بتلك الألف الشيطانية التى يكتبها الجميع بعد (واو) ليست (واو جماعة) على غرار (أرجوا الهدوء) . ولو كنت ترغب فى معرفة النطق الغربى للفظة (سافارى) فلتتخيل أنها (صفرى) بفتح الصاد والفـــاء ..

وحـــدة (سافارى) التى نتكلم عنها هنا لا تصطاد الوحوش ولكنها تصطاد المرض فـــى القارة السوداء ، وســـط اضطرابات سياسية لا تنتهى وأهالٍ متشككين وبيئة لا ترحم ..

الوحدة دوليـــة لكن بطلكم الفقيـــر المعترف بالعجز والتقصير شاب مصرى عـــادى جدًّا ، فقط وجد كثيرًا من عوامل الطرد فى وطنه فانطلق يبحث عن فرصة فى القارة السوداء .. انطلق يبحث عن ذاته ..

هناك وجد التقدير .. وجد المغامرة .. وجد الحب .. الطبيبة الكندية الرقيقة (برنادت جونز) التى صارت زوجته .. ثم هناك الفيروسات القاتلة والقبائل المعادية والمرتزقة الذين لا يمزحون ، والعلماء المخابيل وسارقو الأعضاء ..

هناك ـ كما قلنا ـ من العســـير أن تجمع بين شيئين : أن تظل حيًّا وتظل طبيبًا .. لكنك تحاول .. فى كل يوم تحاول ..

هذه المحاولات هى ما أجمعه لكم وأقصه لكم فى شكل قصص .. وقصصى هى خليـــط عجيـــب من الطـــب والميتافيزيقا والرعب والعواطف والسياسة ! لا أعرف إن كان هناك مجنون آخر قد

جرب أن يصب هذا الخليط فى كئوس ويقدمها لكم ، لكنى لم ألق هذا المجنون بعد إلا فى مرآتى ..

تعالوا نبدأ وسنفهم كل شىء ..

★ ★ ★

الليلة الأولى

من جديد نلتقى . قلت لكم إننى الراوى الأفريقى كوتانجا . الاسم الذى يدعونى به الجميع هو (مزى) ، ومزى كما قلت لكم معناها (الشيخ الحكيم) .

هأنذا جالس فى موضعى فوق جذع الشجرة الذى يشبه العرش ، مرتفعًا فوق الرءوس والعيون المتسعة لهفة .. هناك من يدق على طبل أجوف ليحدث إيقاعًا بسيطًا ناعسًا يلاحق كلماتى . عن يمينى ويسارى هناك مشعلان يضيئان الليل ، ومن بعيد تغفو أكواخنا ، لكن لا أحد فيها لأن الجميع هنا ..

أنا مزى راوى القبيلة ، ودورى يشبه دور التلفزيون لدى مجتمعات متحضرة أخرى ، وأنتم يا أبنائى لا تعرفون ما هو التلفزيون .. مزى يعرف كل شىء ، وسمع عن الأشياء الباقية . خارج حدود هذه القرية ثمة أشخاص يكلمون بعضهم البعض عبر الحبال ، أو عن طريق حلى صغيرة بحجم قبضة اليد يضعونها على آذانهم .. وهذه الحلى تنقل لهم كلام من يوجد

على مسافة ألف قرية . هناك صناديق تتكلم يسهر الناس أمامها ليلهم .

العالم متسع خلف قريتنا الواقعة فى ممباسا ، لكننا لا ندرك هذا . أنا أعطيكم لمحة من هذا العالم ولهذا تنتظرون الليل كى تسمعوا قصصى ..

القرية كلها هنا .. تجلب لى النساء بعض الفاكهة ، وإحداهن جلبت لى فخذ حمل صغير .. الرجال قدموا لى بعض التبغ لأمُضغه .. لا أسنان عند مزى ، لكنه قادر على استخلاص عصارة التبغ قبل أن يبصقه ..

ها نحن أولاء يا أبناء الشمس نلتقى ..

القمر ساطع فى السماء الصافية ، وهذا يضفى جوًا شاعريًا محببًا . أنتم منهكون خائرو القوة بعد يوم شاق من العمل . الكل يعمل هنا سواء فى الرعى أو الصيد ، والنساء يعملن من أولى ساعات الفجر حتى المساء ... لهذا تجلسون فى استرخاء جميل تصغون لى ، ولهذا تصدقون ما أقول .. لا أحد يملك القدرة على عدم التصديق وهو مفكك الأوصال مرهق .

ربما تفضلون النوم ، لكنكم تفضلون أكثر أن تصغوا إلى مزى الشيخ الذى يعرف الكثير .

إن قصصى هى رزقى .. لا أقدر على قذف الرمح بهذه الذراع الواهنة ، ولا أقدر على ممارسة الزراعة أو مراقبة الماشية .. الإمساك بثور يعنى أن أسقط تحت حوافره القوية ..

موهبتى الوحيدة التى تبقينى حيًا هى السرد ..

أقدر أن أسرد عليكم ليلة بعد ليلة قصصًا تبقيكم متيقظين ، فاغرة أفواهكم من فرط الإثارة . ولسوف تنتظرون قصة الغد فى شغف متسائلين عما سيحدث ، حتى إذا جاء المساء حملتم لى ما تيسر من لحم وفاكهة وهرعتم لمجلسى هذا . وعندها تنسون الأغنام والصيد بالرماح والأسد الذى يحوم حول القرية ، والكاسافا ...

أنا مزى يا أبناء الشمس .. ولدى مزى قصة فاقتربوا .

★ ★ ★

لعلكم تذكرون ما حكيته لكم منذ زمن عن الطبيب (علاء) القادم من بلاد مصب النيل ، وحكيت لكم عن لقائه مع رجال

الماساى فى تلك الليلة التى طارده فيها أسد جبار . وفى الصباح أدرك أنه يحلم ..

تذكرون هذا ؟

علاء قد ارتحل إلى بلاد الغرب ، حيث رجال الكيكويو والفولانى . تزوج وأنجب ويعيش هناك ، فكيف تصلنى أخباره ؟.. لأننى مزى يا أبناء الشمس ، ورزقى هو أن أعرف ..

أنتم تعرفون طباعه العصبية المتقلبة ، وتعرفون حظه العاثر ، وتعرفون امرأته الكندية الرقيقة .. لقد استجدت ابنته سارة على الأحداث ...

هناك فى وحدة سافارى بأنجاوانديرى يمارس عمله مع زوجته ..

يحاول أن يتعلم وأن يشغل حيزًا من الفراغ ، ولا شك أنه يحظى بكثير من احترام زملائه .. هناك أشخاص يضعون فى ذهنهم صورة وطنهم وهم فى الخارج ، وتؤرقهم فكرة نظرة الآخرين لهم باعتبارهم عينة لشعوبهم .. لهذا كان يحاول أن يكون أفضل .. أفضل مما هو بكثير ..

هناك آخرون لا يبالون ولا يبدون اى اهتمام .. هكذا يكوّن الآخرون انطباعات غاية فى السوء . لو أن معك إيطاليًا وقحًا فى نوبة العمل فلن تقول إنه وقح ، وإنما ستقول فى ثقة إن الإيطاليين وقحون . عندما يسرق لص برازيلى حقيبتك فسوف تقول إن البرازيليين جميعًا لصوص . كان علاء يدرك هذا ويحاول أن يترك صورة جيدة عن المصريين ، أما عن العرب فقد كانت المسئولية تقع على عاتقه وصديقه التونسى بسام ..

كانت هذه فترة قاسية على الوحدة ، لأن المدير بارتلييه البدين طيب القلب كان قد أصيب بجلطة قلبية ، واستدعى الأمر نقله إلى فرنسا لإجراء جراحة قلب مفتوح . لا شك أن جميع أعضاء الوحدة يحبون المدير ... لكن ما هو أسوأ من مرض المدير ، فهو نائب المدير البريطانى (باركر) الذى تولى المسئولية . هذا رجل سمج .. يكفى أن ترى وجهه وابتسامته اللزجة والشراسة فى عينيه وشاربه الأبيض وسط وجهه الأحمر . تدرك على الفور أن هذا رجل يصعب التعامل معه .. إنه يمثل كل ما هو استعمارى قبيح فى الامبراطورية البريطانية ، وهو يكره الجميع ويكرهه الجميع .. فكيف لو صار هذا رئيسك فى العمل ؟

يحاول علاء ألا يتعامل مع الرجل إلا فى أقل حيـز ممكـن . ليس من السهل ألا تتعامل مع رئيسك فى العمل لكن (عـلاء) يحاول . من الطرق المختارة ألا ترتكب أى أخطاء وأن تعمل فى الظل .. وأن تفر إلى غرفة جانبية عندما تقابله فى الردهة ..

لهذا يمر (باركر) على قسم الجراحة فيرى د . علاء واقفًـا أمام حوض الغسيل يقوم بعملية التعقـيم . فيبـدى ملاحظـات سخيفة على طريقته فى استعمال الفرشاة .. ملاحظـات مهينـة طبعًا لأن (علاء) لم يعد طالب طب .. إنه بالتأكيد يعرف كيـف يجرى التعقيم . يشبه الأمر أن تصدر تعليماتك لشيخ طاعن فـى السن حول كيفية غسل وجهه أو الوضوء ..

يقول علاء فى أدب :

ـ « حسن يا سيدى .. »

ـ « وهذه اللحية تجعل عملية التعقيم أصعب .. »

ـ « سأحلقها يا سيدى .. »

وهو تهذيب أقرب للإهانة .. باركر يعـرف (عـلاء) جيـدًا ويعرف أنه مشاكس لا يهوى طاعة الأوامر ، لذا يستنتج صادقًا

أنه يسخر منه .. لكن كيف تعاقب شخـصًا كـل جريمتـه أنـه يحترمك جدًّا ؟

ينظر لعلاء فى غيظ ومقت ، ثم يهز رأسه وينصرف ..

سوف ينفجر فى الوقت المناسب .. وعندها سوف ينسف هـذا الفتى نسفًا . صبرًا .. لم تعد هذه أيام بارتلييه الرحيمة اللطيفة .. مرحبًا بكم يا سادة فى الجحيم ..

لكن (علاء) لن يكون موجودًا هنا فى الأيام القادمـــة ، لأن قصة مثيرة سوف تحدث حالاً ..

أرى أن عيونكم احمرت والأطفال بدءوا يغفون ... هناك مـن يتثاءب ، والقمر ينحدر نحو الأفق ..

أعتقد أننى سأنهى سرد هذه الليلة ونكمل القصة ليلة غد ..

★ ★ ★

الليلـة الثانيـة

مرحبًا بكم ..

أنا مزى وهذه هى الليلة الثانية من قصتى ..

هيا يا أبناء الشمس قدموا لى لبن الماعز واجلسوا من حولى واصغوا ..

قلت لكم إن الشاب علاء القادم من بلاد النيل كـان يتحاشـى الصدام مع باركر نائب المدير ، والمدير حاليًا ، لكن باركر كـان حريصًا على الصدام ..

كما قلنا كان هناك طبيب إسرائيلى اسمه (أبراهام ليفـى) ، وهو طبيب أمراض عيون .. كانت علاقته بعلاء بسيطة جدًا .. هو يكره علاء وعلاء يمقته .. وكان كلاهما حريصًا على عـدم الصدام مع الآخر ..

كان علاء يمشى مع برنادت زوجته فى حديقة الوحدة يتكلمان ، وهو يلتهم بعض البسكويت ، وهناك كان باب ضيق يقف عنـده بعض من الأطباء يتكلمون .. بعضهم كان يدخن جـوار مطفـأة

السجائر الوحيدة الموضوعة بطبيعة الحال خارج الوحدة ... من حين لآخر يفر مدخن مدمن إلى هنا ليسرق لفافة تبغ سريعة قبل أن يعود لعمله .

علاء يتكلم عندما هوى عقب لفافة تبغ مشتعل علـى حذائـه وتناثر الشرر .. رفع رأسه باحثًا عن ذلك الحيوان الـذى .. .. هنا التقت عيناه بعينى إبراهام ليفى الوقحتين . إن هذا لكثيـر .. لو كان له أن يقسم فلسوف يقسم على أن هذا الفعل متعمد .. لن يقرر ليفى أن يطفئ سيجارته خارج المطفأة فى هـذه اللحظـة وهذا المكان بالذات بالصدفة .

هكذا توتر واستدار له .. لكنه كان قد عاد يكمل الكلام مع أحد الأطباء جواره .

يبدو أن ملامح الشيطان ظهرت على وجه علاء لأن برنـادت مدت يدها تعتصر ساعده ليبتعد ، لكنه كان يدرك الحقيقة القاسية : لو لم يردّ الإهانة الآن فلسوف يكره نفسه بجنون ..

هكذا اتجه إلى حيث يقف ليفى هذا ، وبلا تردد أفرغ ما تبقى من البسكويت على حذائه .. ثم عاد يتكلم مع برنادت ..

طقطق بعض الأطباء بلسانهم . كانوا يعرفون أنه لا يجب جمع هذين فى مكان واحد .. واحد متغطرس سمج وواحد مشاكس عصبى كالبراغيث .. بعضهم لم ير كيف بدأ الموقف لذا اعتبروا علاء عدوانيًّا بلا استفزاز يبرر هذه العدوانية .. هذا خطأ شائع .. أن ترى رد الفعل ولا ترى الفعل نفسه ، فيكون حكمك ظالمًا ..

نظر ليفى بعينه الباردة إلى علاء ، وقال والدخان كريه الرائحة يتصاعد من فمه :

ـ « احترس !.. »

قال علاء ولحيته تهتز انفعالاً :

ـ « لقد أظهرت منذ لحظات كم أنك تحترس .. أنا أحترس مثلك بالضبط .. »

ـ « ليس بما يكفى .. »

هنا فقد علاء أعصابه فمد يده يضعها على ياقة معطف الطبيب الإسرائيلى .. وقال ونظرة الغضب توشك على الانفجار من محجريه :

ـ « اسمع .. ليس لدىَّ وقت أضيعه معك .. . فى المرة القادمة لا تلقى بأعقاب السجائر على حذائى .. »

لم يتطور الأمر أكثر لأن الأطباء تدخلوا ، وإن بدا لكل من يرى المشهد من بعيد أن علاء يوشك على ضرب الإسرائيلى .. وأبعدوا الاثنين ، وإن راح أحد الأطباء يكرر :

ـ « التحضر .. بعض التحضر .. لسنا فى حانة هنا .. »

هنا ظهر باركر ..

لا تدرى سر الجاذبية التى يتمتع بها هذا الرجل تجاه الأخطاء ، ولا من أى بئر جحيمية يظهر فجأة .. من أين يأتى ؟؟ لا أحد يعرف .. إلى أين يذهب ؟.. لا أحد يعرف ..

المهم أنه ظهر فى هذه اللحظة بالذات ..

مشهد مثير غريب .. وعلى الفور استنتج ما يريد استنتاجه . هنا تُمارس البلطجة كما يجب أن يكون ، كما أن علاء يترك العنان لمعاداة السامية .. هوايته المفضلة .

كان يعرف الكراهية القديمة بين الرجلين .. كراهية تعود لعام 1948 على الأقل ، فلابد أنها قد غرست فى الجينات .. لقد أغضبه المشهد جدًّا ـ ومعه حق ـ لكنه افترض أن المخطئ الوحيد هو علاء . هكذا طلب من علاء أن يلحق به فى مكتبه ..

نظر علاء إلى ليفى مهددًا ، ثم نظر إلى برنادت معتذرًا ، ولحق بالفوهرر الغاضب ..

فى المكتب فعل علاء بالضبط كل ما من شأنه أن يبدو مجرمًا .. لقد انهال بالهجوم على ليفى وقال إنه وغد عنصرى .. وإنه يجيد فن القتل ثم الصراخ طالبًا العون ..

قال له باركر وقد احمر وجهه أكثر :

ـ « إذن أنت لا تنوى أن تقدم اعتذارًا له ؟.. »

ـ « بالطبع لا يا سيدى .. بل أجسر وأطلب الشىء ذاته منه .. لدى شهود على أنه من بدأ .. »

نظر له باركر من فوق إطار نظارته بتلك الطريقة الباردة التى يجيدها البريطانيون ، وقال :

ـ « أنا لست مهتمًا باستجواب الشهود .. انا مهتم بما رأته عينى ، وما رأيته هو أنك تتحرش بزميل لك فى الوحدة ، وهذا مشهد قد نقبله فى حانة فى الغرب الأمريكى .. لكن ليس فى هذه الوحدة المحترمة .. »

قال علاء وهو يضع يديه فى جيبى المعطف :

ـ « هذا جميل .. لكن الأطباء المحترمين لا يلقون بلفائف التبغ على زملائهم .. »

ـ « لم يحدث .. ولو حدث هذا فهو خطأ غير مقصود ، بينما ليس بوسعك أن تزعم أنك أمسكت بياقة معطفه على سبيل الخطأ .. »

ساد الصمت الرهيب الذى يدل على تصادم الإرادات .. فى النهاية قال باركر :

ــ « أعتقد أنك لن تعتذر يا دكتور عظيم ؟.. »

قال علاء فى استسلام :

ــ « أنت تعــرف أشياء كثيرة يا سيدى .. هــذا جدير بنائب المدير فعلاً .. »

قال باركر دون أن ينظر لعلاء :

ــ « إذن عــد لعملك يا دكتور .. وسوف تأتيك أخبــار منــى قريبًا .. »

غادر عــلاء المكتب شــاعرًا بدوار .. كأنه يغادر حانة بعــد ما شرب جالونات من الخمر . لكنه كان سعيدًا .. لقد صمد ورد الإهانة ولم يعتذر ..

لو كان المرء سيعتذر لكل الأوغاد الذين آذوه ، فلن يبقى فى الحياة متسع لأى شىء آخر ..

★ ★ ★

سألته برنادت عما تم فى اللقاء فهز كتفيه وقال :

ــ « أعتقد أن الليلة هى الليلة !.. »

ــ « ماذا تعنى ؟.. »

ــ « أعنى أنه كان لابــد أن يفسخ عقــدى فى لحظة مــا .. سأعود لمصر طبعًا .. سنعود معًا ونبحث عن بلد خليجى نعمــل فيه .. »

تساءلت برنادت فى قلق :

ــ « هل قال هذا بشكل رسمى ؟.. »

ــ « لا . لكنى لم أترك له حيزًا للحركة .. ربما لو اعتــذرت لتحسنت الأمور ، لكن الكلمات تتحول إلى صخور أحيانًا ... تقف فى حلقى وتأبى أن تتحرك .. »

نظرت له لائمة وقالت وهى تصلح خصلات شعرها :



ـ « سيكون هذا أسخف سبب للطرد فى التاريخ .. أنت أحمق .. أول شخص يفصل من عمله لأن عقب سيجارة لامس حذاءه .. »

ـ « بل لأنه أحرق طرف كرامتى .. هذا هو السبب .. »

وهكذا راح علاء يمارس عمله غير مهتم .. وإن تساءل عما ستكون عليه الأمور بعد شهر . بالطبع هو مرتبط جدًّا بوحدة سافارى .. يعرف كل باب وكل ركن وكل جدار فيها .. يحفظ كل وجه وكل نبتة وكل ثلمة فى جدار وكل سحلية تجرى فى الحديقة ... سيكون قاسيًا جدًّا أن يفقد هذا ..

عند المساء جاء من يطلبه لمكتب باركر ..

أين أنت يا بارتلييه ؟.. كنت خير سند لى . لماذا تركتنى لهذا الوحش المتعطش للدماء ؟

اتجه إلى حيث يجلس باركر واستعد كى يبدو باردًا صموتًا .. لن يمنحه فرصة أن يشعر بأنه آذاه ..

وقف صامتًا لكن باركر قال :

ـ « لقد ارتكبت خطأ جسيمًا وأبيت أن تعتذر . لكن ما زلت أرى أن الخلاص منك ليس الحل الأمثل ، لهذا قررت أن أنفيك !.. »

نظر له علاء فى دهشة .. هل يرسله إلى بلد أفريقى آخر ؟ لقد عاش علاء فى كينيا وفى جنوب أفريقيا .. هل هو الكونغو هذه المرة ؟.. يبدو أن الغوريلا ستلتهم مؤخرته حقيقة لا مزاحًا ..

لكن باركر قال لعلاء :

ـ « كنت أنت فى قرى الفولانى منذ فترة قصيرة ، وسوف أرسلك هناك من جديد .. »

تذكر علاء قرى الفولانى .. قرية هاكيلى حيث المرأة المصابة بحمى نزفية .. كان هذا منذ وقت قريب جدًّا .. ليس ذاك منفى إلى هذا الحد ..

لكن باركر قال وهو يوقع بعض الأوراق :

ـ « لن تعود فى ذات اليوم . سوف تقضى هناك بضعة أيام لأن التقارير تقول إن الملاريا بدأت تظهر هناك من جديد ، وهى ملاريا تقاوم مضادات الملاريا المعروفة .. سيكون عليك تعاطى خليط من المفلوكين والدوكسى سايكلين ... سوف يخبرك د. شيلبى كيف تحمى نفسك . سوف يكون معك صديقك التونسى بسام .. »

هذا غريب .. كأنه يعاقب العربيين معًا ..

يصعب على علاء أن يمضى أسبوعًا بعيدًا عن سارة ابنته ، فقد كبر وصار أقرب للدعة والاسترخاء وحياة البيت ، لكن لا بأس بهذا التغيير .. سيكون مع بسام ، وبسام عينة ممتازة من البشر .. علاقة ممتازة وتفاهم تام .. لن تكون أيامًا سيئة ..

أراكم تتثاءبون .. لهذا أكتفى بالسرد لهذه الليلة ..

★ ★ ★

الليلة الثالثة

مرحبًا بكم ..

هكذا هبط علاء فى تلك القرية من قرى الفولانى . اسم القرية (ألفا أومار) .. وهو اسم ذو أصل عربى بالتأكيد .. ربما هو النطق الأفريقى لاسم (الفاروق عمر) لأنه من الصعب تخيل أن هذه القبائل تعرف الأبجدية اللاتينية وحرف (ألفا) ..

أنتم يا أبناء الشمس تعرفون أن الفولانى هم الوولوف وهم الفلاتا ..

بالفعل كانت هناك عدة حالات من الملاريا المقاومة لمعظم العقاقير .. مشكلة شرق آسيا قد بلغت أفريقيا ، مع أن غرب أفريقيا كان غالبًا من الأماكن التى تستجيب فيها الملاريا للعلاج القديم ..

كانت وزارة الصحة الكاميرونية قد قامت بحملة لإبادة البعوض هنا ، كما أنهم قاموا بتوزيع العلاج الوقائى .. يومًا ما سوف يجد أحدهم لقاحًا فعالاً رخيص الثمن ضد الملاريا وهذا الشخص

سوف يدخل التاريخ من باب واسع . صحيح أن عقار RTS,S الذى أنتجته شركة جلاكسو يبدو واعدًا ، لكنه لم يصر مقبولاً بشكل رسمى بعد .

تسألون كيف عرفت هذا كله ؟.. أكرر من جديد أننى مزى .. أعرف كل شىء ..

ليس هذا موضوعنا .. هذه خلفياته ..

كان علاء قد عرف عادات الفولانى وبعضًا من (الفولفود) لغتهم . لهذا لم تكن إقامته بهذا السوء . هناك كذلك من يتكلمون الفرنسية وكلمات عربية قليلة . أضف لهذا أن مترجم وحدة سافارى بودرجا كان معهم ... بودرجا شخصية فاتنة تشبه جوكر أوراق اللعب جدًّا ، فهو يصلح لأى دور .. هو ممرض وعامل نظافة ومترجم وسائق وطبيب تحت التمرين وصديق وفى ..

لم تكن هناك مشاكل فى اليوم الأول . فقط ملأ علاء بعض الجداول والأرقام .. كان بسام يجيد فحص عينات الملاريا ، لذا وضعوا له منضدة من البلاستيك ومقعدًا ، كما وضعوا مظلة تقيه حر الشمس .. جلس فى ظلها وأمامه مجهر بسيط يعمل بضوء

الشمس . هناك كان يجلس ويقوم بعمل الشرائح .. ثخينة ورفيعة ، ثم يفحصها تحت المجهر وهو يجفف عرقه ، باحثًا عن الطفيليات المغزلية أو الصبغة المميزة فى خلايا الدم الحمراء . ومن حين لآخر يجلبون له دنًا مليئًا بالكوسام .. وهو اسم اللبن هنا .. طبعًا لا يستطيع أن يعترض لأن اللبن لم يتم غليه . لا أحد يمارس هذا الترف عندما يتعامل مع القبائل . هكذا يشرب وتتساقط قطرات اللبن من لحيته نصف النامية ..

كان الأمر واضحًا .. الملاريا هنا تسبب مشكلة لا بأس بها ، دعك من أن البعوض قد تعلم كيف يقاوم معظم المبيدات ..

فى اليوم التالى أدرك علاء أن هناك مشكلة أخرى .. أجهزة الهاتف الجوال توشك على استهلاك شحن الكهرباء ، والقرية بلا كهرباء ... لقد رحلت سيارة سافارى ولم يعد من الممكن شحن الهواتف من المحرك ، كما أن هناك مولد كهرباء واحدًا فى القرية وهو تالف منذ فترة ..

هذه هى القاعدة التى لا تخيب أبدًا . الهاتف الجوال لا يعمل أبدًا عندما تحتاج له ، وعلى كل حال فمن الوارد ألا نحتاج

للاتصال ثانية .. لن تكون هناك مشاكل ، والسيارة عائدة خـلال خمسة أيام ..

عندما جاءت الظهيرة جلس علاء تحت المظلة مـع بـسام .. كان مع علاء بعض البسكويت وبدأ الشابان يأكلان ، ثم ظهـرت الكاسافا من مكان ما .. وكان عليهما ان يلوثا كفيهما ..

من مكان ما ظهر ذلك الشاب الفارع الوسيم الذى طلا شـفتيه باللون الأسود وهو يلبس قبعة من قش غريبة الطراز جدًا .. هناك شىء فى ثياب هؤلاء القوم يذكرك بثياب الوطنيين فـى بيـرو ، وشىء يذكرك بقبائل الطوارق ...

كانا قـد عرفا اسـم الشـاب .. انه ابن كبيـر القرية واسمه (إبراهيما) ... تأثير عربى إسلامى آخر كما ترى . كان إبراهيما يحمل طبقًا من الخوص المجدول تنبعث منه رائحة فاخرة مغرية ، ووضعه أمامهما . الرجال هنا لا يقومون بأى عمـل منزلـى أو يقدمون الطعام . معنى هذا أنه يمنحهما شرفًا عظيمًا ...

من بودرجا يعرفان أن هذا الطبق هو لحم غنم مشوى .. اسمه (بروشيت) ... أما هـذه العصيدة فاسمها السانجاه .. تـصنع من ورق الكاسافا ..

قال علاء فى حرج :

ــ « نحن لا نريد أن نكون عبئـــــ ... .. »

ضحك الفتى فارع القامة كاشفًا عن أسنان ذهبية ضخمة وقال بفرنسية سيئة :

ــ « لن تعيشا خمســة أيام على هــذا البـسكويت .. أنتمـا ضيفانا .. »

طفق الشابان يأكـلان .. كان الطعـام شهيًا نظيفًا .. وأشعل بسام لفافة تبغ .. لقـد تعلم التدخين منذ فترة ، والسبب طبعًـا هو أنه يشعر بالوحدة هنا . يتخيل أن التبغ يزيل هموم الوحـدة نوعًا ...

قال إبراهيما بعد ما فرغا من الطعام ، ومعظم كلامـه فهمـاه عن طريق بودرجا :

ــ « ما دمتما هنا ، فهناك مريض أرغب فى أن ترياه .. إنه أخى (مامادو لامين) ... .. »



طبعًا يسهل أن تتخيل أن (مامادو لامين) هى النطق الأفريقى لـ (محمد الأمين) ... وقد تعلم علاء على كل حال أنه عندما يطلب هؤلاء الأفارقة رأيه فى حالة معينة ، فهى غالبًا كارثة .. حمى نزفية أو ما هو ألعن ... هذه حالة غير قادرة على المجيء له بقدميها ..

هكذا نظر لبسام نظرة ذات معنى ثم نهض الشابان معًا ..

القيظ والشمس الحارقة والمعدة الممتلئة .. هكذا تصير الحياة صعبة جدًا ..

هناك كان الكوخ الذى يشبه المساجد .. بوكارو .. لها قبة من أعلى وعدة فتحات للتهوية ، ومغطاة بقماش أحمر من أعلاها مما يعطيها منظرًا مبهجًا فعلاً .. ويبدو أن هذا التصميم ممتاز فى التهوية ، لأن الأكواخ من الداخل رطبة مريحة . يحكون أنه كان هناك فى بلاد النيل مهندس عبقرى اسمه حسن فتحى ، ابتكر ما أطلقوا عليه (عمارة الفقراء) وهناك قرية كاملة تحمل بصماته فى مصر اسمها (القرنة) .. بيوت حسنة التهوية

رخيصة الثمن تشبه أكواخ الفولانى هنا ، وبالطبع لم يطبق أى واحد أفكاره تلك ..

يدلف الشابان إلى الكوخ .. الظل والظلام ورائحة المرض ..

لابد أن الموت ــ كما فى الأسطورة المجرية ــ ينتظر هنا فى مكان ما .. ينتظر اللحظة المناسبة ليتجه إلى رأس الفراش ليقف هناك ..

أزاح أحدهم ستارًا من قماش أحمر سميك يغطى إحدى النوافذ ، فتسرب ضوء العصر الواهن إلى الداخل ، وتربع علاء جوار الفتى الراقد ...

كان مريضًا فعلاً ..

* * *



الليلة الرابعة

مرحبًا بكم ..

نظر علاء إلى الشاب السقيم فأدرك أنه مريض جدًّا .. كان فى العشرين من العمر ، فارع الطول كبير الأطراف أسود الشفتين كما الرجال هنا ، وكان راقدًا على ظهره تحت ملاءة من القماش المحلى . وقد غاب عن الوعى تمامًا .. حالة غيبوبة على الأرجح ..

الرائحة تدل على أنه قد فقد التحكم فى البول ...

على جبهته تنتثر قطرات العرق .. وشفتاه تهتزان مع كل تنفس .. ومن بين شفتيه سال خيط من اللعاب فقد التحكم فيه ..

فى ردة فعل معتادة مد علاء يده يتأكد من أن عنق الفتى طرى .. لا يريد أن تكون هذه حالة التهاب سحائى وهو لا يدرى ...

كان قد تعلم أن الأطباء ينسون هذه النقطة دائمًا ، والنتيجة هى أنهم يفقدون المريض بسرعة جنونية . الفتى محموم كذلك .. هذا واضح ..

فى هذه اللحظة فتح الفتى عينيه .. كانتا كجمرتين متقدتين ونظر حوله بذعر ، وبدا كأنه لا يطيق الضوء القادم من النافذة ، ثم راح يطلق الصراخ .. وعلى الفور ارتمى ثلاثة رجال يقيدون يديه ورجليه حتى لا يؤذى نفسه ومن حوله وهو كثور هائج ... ربما يركل علاء فى وجهه فيهشمه ..

كان الزبد يتطاير من فيه كأنه يعذب فى سقر .. صراخ حاد رفيع يجمد الدم فى العروق ..

هاتان العينان الزائغتان ..

قال بسام وهو ينحنى ليتفحص الفتى :

ـ « أنسيفاليت .. تائه بارشا .. »

هذه هى المشكلة مع بسام .. اللكنة التونسية قد اعتادها علاء .. بارشا معناها (جدًّا) .. لكنه لا يتكلم الطب الفرنسى برغم أنه يجيد الفرنسية . لابد من ترجمة المصطلح إلى الطب الإنجليزى الذى يعرفه علاء ...

Encephlaitis



التهاب مخ .. هذا واضح .. لكن ما السبب ؟.. هناك فيروس طبعًا ..

هل هى حمى غرب النيل أم حمى الوادى المتصدع أم حمى الضنك ؟ حمى الضنك لم تظهر فى أفريقيا قط .. بل هى نشاط آسيوى محبب ..

قال علاء لبسام وهو يتفحص حدقتى الفتى :

ــ « لا نستطيع عمل شىء .. لابد من نقله إلى وحدة سافارى .. »

قال بسام متوترًا :

ــ « السيارة لن تصل قبل بضعة أيام .. يجب أن نتصل بهم ليرسلوا السيارة .. ربما يرسلون الهليوكوبتر .. »

هكذا غادر الشابان الكوخ وشرحا لبودرجا الموقف كى يتفاهم مع الزعيم وابنه ..

بالطبع كان الهاتفان المحمولان قد فرغا من الشحن . لا توجد طريقة لإعادة الشحن إلا بالعثور على كهرباء ، والكهرباء فى السيارة . والسيارة لن تعود إلا بعد بضعة أيام .. وهكذا ..

قال علاء مفكرًا :

ــ « رأيت ذات مرة طريقة لشحن الهاتف المحمول بورقتى شجر .. »

ضغط بسام على السيجارة وقال ساخرًا :

ــ « إذن أنت وقعت فى براثن هذا الهراء المنتشر على الإنترنت .. دعك من الهذيان يا صاحبى .. »

أكمل علاء عبارته :

ــ « وقد نسيت الطريقة على كل حال .. »

ــ « هذا لحسن الحظ ... .. »

وهكذا جلس الطبيبان تحت المظلة يناقشان ما يجب عمله .. للأسف لم تكن هناك خيارات كثيرة . محاولة العودة من هذه القرية إلى أنجاوانديرى صعبة جدًّا .. الطريق وعرة ولا توجد مواصلات لمسافة 50 كيلومترًا تقريبًا .. لهذا يختارون هذه القرى المنعزلة لوحدة سافارى كى تذهب لها ، وإلا لتوجه سكان القرية إلى الوحدة بسهولة ..

ـ « هذا يعنى أننا محاصران .. »

ـ « هذا صحيح .. يجب أن نستمر فى أداء عملنا وننتظر .. »

قال علاء وهو يداعب ذؤابة لحيته القصيرة :

ـ « لن يعيش الفتى حتى تصل السيارة .. هذا واضح .. »

ـ « نحن سنحاول ما نستطيع .. ليس بيدنا ما نعمله .. »

واتفقا على تغذية الفتى ببعض ما لديهما من محاليل وريدية .. وكانت معهما بعض المضادات الحيوية فقررا استعمالها بصرف النظر عن النتيجة أو المبرر ..

بالطبع كان الفتى على درجة من الهياج ، لذا احتاجا إلى أن يقيداه بالحبال فى وضع المصلوب .. كان هذا قاسيًا وغير إنسانى .. لكن هل تعرف حلاً آخر ؟

★ ★ ★

عند المساء جلجل صوت المؤذن بآذان العشاء . هناك مسجد صغير هنا ، وصوت المؤذن يشعرك بألفة غريبة برغم أن اختلاف اللكنات يجعل علاء لا يتبين حرفًا واحدًا مما يقال ... هذا المؤذن

لا يعرف حرفًا من العربية لكنه يكرر ما حفظه عن جده .. هكذا صلى علاء العشاء مع بسام وجلسا على الأرض جوار المسجد الصغير ..

جاءت فتاة تحمل لهما بعض الطعام .. هذه المرة هو خبز وزبد من الطراز الذى يسمونه (كيتوجول) هنا ، وهم يحبونه جدًّا .. وبالطبع كان هناك دن لبن لكل منهما ..

قال علاء لنفسه إنه لو لم يصب بحمى مالطة (البروسللا) بعد كل هذا اللبن غير المغلى ، فالمرض خرافة ..

كانت بارعة الحسن لها ملامح دقيقة وسيمة ، وتجدل القواقع فى شعرها كعادة النساء هنا ، وعندما ضحكت بدا له أجمل صنف أسنان نضيدة فى العالم . سألها بلغة الفولانى عن اسمها فقالت :

ـ « فطوماطا .. أنا ابنة الزعيم .. »

ـ « أخت إبراهيما و مامادو لامين ؟.. »

ـ « نعم .. »

هكذا ـ خطر له ـ لا يمكنك أن تسمع اسمًا عربيًـا إلا بعد القليل من التحريف المضحك .. إبراهيما .. فطوماطا .. بنتـا .. لمَ لمْ يسموها (فطومة) وينتهى الأمر ؟ لابد من التعقيد ..

لكن الحقيقة أن اسم فطوماطا كان طريفًا غريبًا ...

لم تبتعد الفتاة ..

جلست على مسافة قريبة تراقبهما حتى شعر بالارتباك .. ثم أدرك أنها تتأمل بسام فى ثبات .. الفتاة جميلة حقًا لدرجة أنـه غبط صاحبه التونسى بشدة . لكن هذا أفضل .. من الجميـل ألا تعجب بالمرء فتاة تروق له أو من طرازه .. هذا يؤدى للتـورط بلا شك . سرعان ما تجد نفسك متورط القدمين فى شباك قـصة حب ملتهبة . فتيات كثيرات أعجبن بعلاء من قبل ، لكـنهن لـم يكن من طرازه ولم يجد صعوبة فى نسيانهن ، بينمـا برنـادت وأونوابا ـ حسناء الزولو ـ كانتا الفتاتين الوحيدتين اللتين راقتا له وراق لهما ..

كان علاء ينظر لها خفية فاستدار بسام ليرى إلام ينظر .. هنا التقت عينـاه بالفتـاة .. ابتسـم وابتسمت .. الطبيب التونسى الوسيم ملتهب العواطف يبتسم ...

دنت منهما زحفًا على ركبتيها كما نزحف لندنو من مجلس شخص نحبه ، وقالت لبسام :

ـ « أراب ؟.. »

هز رأسه أن نعم ثم أضاف أنه تونسى ..

راحت تحاول استيعاب الكلمة فرسم لها على التراب خارطـة صغيرة لا بأس بها لشمال أفريقيا ، وأشار بإصبعه إلـى مكـان تونس .. لا يبدو أنها فهمت أى شىء أو رأت أى خارطـة فـى حياتها . مفهوم الخرائط نفسه يحتاج لأن تدخل المدرسة بعض الوقت ..

كانت تثرثر بكلمات غير مفهومة .. هكذا اضـطر عـلاء لأن ينادى بودرجا كى يترجم ، وراق له هذا الموقف الساخر كثيرًا . تذكر فى فيلم الناظر ذلك اللقاء العاطفى بين البطل وبائعة هـوى روسية ، وكيف كان هناك مترجم تخرج فى معهد اللغات الشرقية يترجم لكل طرف ما يقوله الآخر . الأعقد أن تتم ترجمة تبـادل كلمات خجلى بين اثنين . ظريف جـدًا بودرجـا وهـو يجلـس

القرفصاء فوق التراب يعبث فى أصابع قدميه ويلتهم ثمرة ليمون ، ويترجم الكلام بلا اكتراث .

عن طريق بودرجا سألت الفتاة (بسام) :

ـ « هل أخى بخير ؟.. »

قال بسام فى تحفظ :

ـ « هو ليس بخير لكنه سيصير كذلك .. »

هنا تدخل علاء فى الكلام :

ـ « هل أصيب بهذه الحالة فجأة ؟.. ومنذ متى ؟.. »

أعادت فطوماطا إحكام الشال على رقبتها بأنامل طويلة مخضبة بالحناء وقالت :

ـ « منذ ثلاثة أيام .. لكنه ليس على ما يرام منذ زمن .. »

ـ « منذ متى ؟.. »

جاء الرد عبر بودرجا :

ـ « ربما منذ شهر ... .. »

هكذا يمكن القول إن نوعًا من التوعك بدأ منذ شهر ، ثم بلغ صورته الكاملة المرعبة منذ ثلاثة أيام .. علاء لا يعرف مرضًا مشابهًا ..

لكن ما أكثر أسباب التهاب الدماغ .. إن هذا يقتضى دراسة فيروسية مدققة ، وربما لا تقدر وحدة سافارى نفسها على هذا ..

على كل حال يصعب الاعتقاد أن الفتى سيظل حيًا حتى تصل العربة .. على الأرجح سيكون جثة هامدة غدًا أو بعد غد ..

انطفأت المشاعل وبدأ الظلام ، وعوت بنات آوى من بعيد ..

قد انتهت الأمسية إذن .. غدًا نكمل قصتنا ...

★ ★ ★



الليلة الخامسة

مرحبًا بكم ..

هل جاء الجميع ؟.. أرى أسامبارا يقف وقفته المعهودة على ساق واحدة وقد دفن كف القدم الأخرى فى ساقه .. واستند إلى رمحه كأنه يحرس الليل . أسامبارا الفتى الشهم أقوى ذراع فى قبيلتنا ، وهو يصغى لما أقول ..

تعال يا أسامبارا فمزى سيحكى قصة الليلة ..

لقد قضى الطبيبان النهار كله يعملان فى تلك المهمة الأصلية لهما مع حالات الملاريا ، وعند الظهيرة قال بسام إنه راغب فى رؤية الفتى (مامادو لامين) ليريا ما حل به ..

أدرك علاء فى خبث أن الفتى يشعر بمسئولية أدبية نحو فطوماطا . الفتى أخوها .. لا يمكن تركه يموت ككلب عقور ..

اتجه الطبيبان إلى الكوخ .. هناك كانت بعض النسوة يحطن بالفتى ، وكن قد تعلمن كيف يغلقن جهاز المحلول عند انتهائه .. المحلول نفسه كان معلقًا فى حبل يتدلى بين جدائل السقف ..

الزعيم (بو باكار بيلو) كان هناك كذلك وهو رجل فارع الطول .. ملثم يلبس كمية هائلة من القلادات وقبعة قش عملاقة .

كان يرمق ابنه المريض فى قلق .. وعندما هبط النقاب عن وجهه أدركا أن خديه مليئان بتلك الشقوق الطولية التى يحدثها الساحر فى الأطفال عند ولادتهم ..

منظر الفتى المقيد بالحبال كان رهيبًا .. كأنه وحش هائج يريد أن يتحرر ...

سأل الزعيم بودرجا عدة مرات عما إذا كان هناك ما يقدرون على عمله ، وأدرك على الفور أنه ليس بيد الطبيبين شىء .. لا شىء سوى التعاطف ..

سأله علاء عما إذا كان يعرف طريقة للاتصال بوحدة سافارى أو وزارة الصحة ، فقال إنهم بعيدون جدًّا عن الخدمات الصحية كلها .. لو كان ابن الزعيم لا يظفر بخدمات طبية فمن المستحيل أن يظفر بها أى من هؤلاء التعساء ..

عندما جلس علاء جوار الفتى المريض لاحظ أنه مصاب بالحول .. حول مستجد لم يكن هنالك أمس . هذا يدل على شلل الأعصاب الدماغية ..

هذه علامة تتكرر فى التهاب المخ .. وقد تحدث فـى حـالات أخرى مثل البوتيوليزم (السجقية) الذى ينتج عن التهاب السمك الفاسد ..

كانت شفتا الفتى جافتين متشققتين .. وكان ينظر لعلاء فـى ثبات بعينيه الحمراوين .. بينما العرق يسيل منه فيبلل الحشية . وضـع علاء يده على النبض فأدرك أنه متسـارع جدًّا وغيـر منتظم ...

ثم إنه راح يهمس بلفظة معينة ... يكررها بـصوت مبحـوح لا يمكن استيعابه ..

نظر علاء متسائلاً فوجد بودرجا على بعـد متـرين يراقـب المشهد فى استمتاع ...

قال بودرجا وقد فهم السؤال :

ـ « يطلب ماء يا دكتور .. »

هذا صحيح .. عندما يطلب شخص له شفتان متشققتان شـيئًا بصوت مبحوح ، فما يريده هو الماء فى 80% من الحالات ..

(فطوماطا) كانت هناك ، وكانت دامعة العينين ..

جلبت نصف قرعة فارغة وقد امتلأت بالماء ، ثم قربتها مـن شفتى الفتى ... أخيها . لابد أنها كانت تهمس بـبعض كلمـات التدليل بلغتها ..

هنا انتفض وأشاح بوجهه .. بدا للحظة كأنه سيشرب ثم فطن لنفسه كأنه كان سيرتكب شيئًا مشينًا .. أبعد وجهه نحو الجـدار وراح يبكى ..

عاودتْ المحاولة وقربت الماء من شفتيه فبصقه وراح يحرك رأسه يمينًا ويسارًا .. كالممسوسين .. لا شك أنهـم يعتبرونـه ممسوسًا ..

اقترب علاء من الفتى وهذه المرة نفخ فى وجهه .. كـان رد الفعل عصبيًا وعنيفًا جدًّا ..

تبادل علاء وبسام النظرات .. وشعر الأول أن شـعر رأسـه ينتصب رعبًا .

إنهما طبيبان ويعرفان جيدًا معنى هذا المشهد .

* * *

الفتى أخوها .. لا يمكن تركه يموت ككلب عقور ..

لم يدر علاء مدى دقة هذه العبارة إلا الآن ...

★ ★ ★

عندما وقف الشابان فى الخارج ، أشعل بسام لفافـة تبـغ .. ونفث الدخان فى عصبية وقال :

ــ « هذا واضح .. »

قال علاء :

ــ « الآن عرفنا سبب التهاب المخ .. »

الخوف من الماء hydrophobia من العلامـات المهمـة فـى مرض الكَلَب (بفتح الكاف واللام) .. لاحظ أنه يُنطق على وزن (عَطَش) حسب لسان العرب ومختـار الـصحاح ... المـرض القاتل الذى يأتى من عضة كلب أو ذئـب أو فـأر أو جمـل أو وطواط .. وربما من حقن خلاصة غدة من مخ مصاب ، أو زرع قرنية مريض مات بالمرض ..

هناك كذلك الخوف من الهواء ..

كان المرض فى الماضى يُطلق عليه (هايدروفوبيا) فعـلاً . أى مرض الخوف من الماء .. سبب الخوف من الماء هو أنـه يسبب تقلصات مروعة أليمة فى حنجرة المريض .. لهذا يصاب بذعر كلما أدرك أن هناك ماءً قريبًا ..

سأكون شاكرًا لو لم تسألونى كيف عرفت هذا كله وأنـا فـى هذه القرية الصغيرة ؟.. أنا مزى كما قلت لكم .. لن أكرر هـذا فى كل دقيقة ..

الآن يستكمل علاء أجزاء اللغز فيجد أن الصورة متكاملة .

الذعر .. الهلوسة .. الرؤية المزدوجة .. العرق .. الدموع .. اللعاب الذى يسيل بلا توقف .. التبول غير الإرادى .. اضطراب النبض ... الخوف من النور ..

كل قطعة من اللغز تهبط فى مكانها ..

خلال خمسة أيام أو أقل سيموت هذا الفتى .. سوف يختنـق بإفرازاته الغزيرة ، أو يضطرب قلبه أو يصيب الـشلل حجابـه الحاجز فيعجز عن التنفس ...



تساءل بسام :

ـ « لكن كيف ؟.. لم يقولوا إن شيئًا عضه .. »

فى بعض الحالات لا يعرف المريض أن شيئًا عضه .. هذا يحدث للعضات البسيطة أثناء النوم . هناك سيناريو شهير عندما تدخل الأم غرفة نوم طفلها الرضيع فتجد وطواطًا يتدلى من السقف .. هنا ينصحك الطب بأن تعامل الرضيع كمصاب بالكلب ، لأن العضة قد لا تكون ظاهرة ، وبالطبع لن يحكى الرضيع ما حدث له .

هل عض كلب أو ذئب أو وطواط هذا الفتى دون علمه ؟

الحل الوحيد هو فحص جسده جيدًا ..

★ ★ ★

لسبب ما كان الزعيم عدوانيًا جدًا عندما طلب الطبيبان أن يفحصا جسد ابنه . طلب علاء أن يفك الحبال التى تقيده ، ويقوم بتعرية أطرافه للتأكد ..

أصر الزعيم أن لا ..

هنا قال له علاء عن طريق بودرجا أن هذا هو الأمل الوحيد لابنه .. تحديد سبب المرض هو ثلاثة أرباع العلاج ..

مرت لحظات قاسية من تصادم الإرادات ، والحقيقة أن الرجل قوى الشخصية حاد النظرات كان الأقرب للفوز . لا أحد يكسب مباراة نظرات مع هاتين العينين ... سبب فوز علاء هو أن الزعيم قرر أن ينسحب من المباراة فجأة ..

ثم أنه أصدر كلمته لولده (إبراهيما) أن يساعد الطبيبين ..

كان الفتى أقرب للغيبوبة لذا لم يقاوم كثيرًا بينما علاء وبسام يتفحصان كل سنتيمتر من جلده . لا توجد علامات غريبة ..

ولكن الصورة تغيرت عندما قلباه على جانبه ، وعندما رفع علاء السروال عن ردف الفتى .. لقد كان هناك جرح عميق متهتك بشدة .. جرح له رائحة قوية ، ويبدو أنه حدث منذ فترة طويلة لكنه لم يلتئم جيدًا .. الألعن هو أن هناك خيوطًا جراحية . هناك من جرب خياطة الجرح .. عضات الحيوان لا تخيط وإنما تغسل بالماء والصابون فقط .. السبب هو أنه لو كان لعاب الحيوان ملوثًا بالفيروس فإبرة الخياطة تجعل المهمة على الفيروس أسهل وأسرع ..

جرح عميق وبالطبع حدث منذ شهر ..

تعرض للعضة .. حضانة المرض ثلاثة أسابيع إلى ثلاثة أشهر .. قد تقصر لتكون أربعة أيام وقد تطول إلى عامين .. لكنها فى العادة كما قلنا تقع بين رقمى ثلاثة ..

هكذا بعد نحو شهر بدأت الأعراض المريعة ..

السؤال هو : هل حقًا لم يعرف هؤلاء القوم بالعضة المرعبة التى أصابت (مامادو لامين) ؟.. كيف ؟.. وإن كانوا قد عرفوا فلماذا لم يقولوا هذا بوضوح ؟

الإجابة سهلة على كل حال ..

رأيت سلوكًا مماثلاً فى الوحدة الريفية التى كنت أعمل فيها فى مصر ، وقد رأيت طفلة مصابة بهذا الداء الخطير . سألت أهلها عما إذا كان قد عضها كلب أو فأر أو وطواط أو جمل أو قط ، فأنكروا بشدة مرددين : « أعوذ بالله !.. »

هناك سببان : السبب الأول هو المعتقد الشعبى أن المصاب بالكلب يركض على أربع ويعض الناس .. هم لا يريدون هذه السمعة اللعينة عن ابنتهم ..

السبب الثانى هو أنهم يخشون الاعتراف بأن حالة ابنتهم ميئوس منها ..

ما يعرفه الناس جميعًا هو أنه لم تنج حالة واحدة مصابة بمرض الكلب فى تاريخ الطب ..!

★ ★ ★



الليلة السادسة

مرحبًا بكم ..

اختلى علاء بالزعيم جانبًا . أعنى أنه اختلى به فى وجود بودرجا ليترجم ، وقال له إن ابنه ضحية السعار .. هناك حيوان قد هاجمه وقد أصيب بالكلب (بفتح الكاف واللام) .. هل حقًّا لم يعرفوا هذا ؟

لم تتحرك عضلة واحدة فى وجه الزعيم بحيث تعرف إن كان موافقًا أم معترضًا .. ولم يقل أى شىء عن الحيوان الذى فعل هذا .

كانت المشكلة هى أن أعراض المرض بدأت ..

لو استطعت أن تعطى لقاح الكلب بعد العضة مباشرة أو خلال ستة أيام منها ، فعلى الأرجح سوف تنقذ المريض ، لكن لحظة بدء الأعراض هى اللحظة الأخيرة قبل انطلاق رصاصة الإعدام .. لم ينج أحد فى تاريخ الطب بعد هذه اللحظة ، باستثناء حالات سوف نحكيها لكم بعد قليل ..

من المصادفات الغريبة أن الفيروس يشبه الرصاصة فعلاً ..

لقد بدأت الأعراض مع الفتى .. معنى هذا أن قصته انتهت .. المهم ان تنقل هذا للزعيم ، لكن من المدهش أنه لم يكن منفعلاً وتقبل هذا باعتباره من ضروريات الحياة .. والأهم أنه بدا راغبًا فى عدم الكلام الكثير عن الحالة ، مما أقنع علاء بنظريته السابقة .. الكلام عن الكلب يعتبره أهل بعض المرضى عارًا لا يجب الإطالة فيه .. ومن يدرى ؟ . لربما كان لاختلاف الثقافات دور . ربما هم يعتبرون المصاب بالكلب نجسًا أو مدنسًا أو تابوو .. أى شىء من هذا القبيل .

كان الفتى يغط بصوت عال فتتناثر لعابه فى كل مكان ..

لقد اختلفت الأمور بالنسبة لعلاء . صحيح أن مريض الكلب لا يطارد الناس ليعضهم كما يحسب المعتقد الشعبى ، لكن من قال إن إفرازاته لا تحمل الفيروس ؟... لهذا يلبس طاقم التمريض فى المستشفيات القناع ونظارات واقية للعينين . هذا فى عالم افتراضى طبعًا أما هنا فلا شىء سوى الستر . ولو عض الفتى أيًّا من المحيطين به فاحتمال انتقال العدوى قوى جدًّا ..

لهذا ظل الطبيبان بعيدين عن المريض ، وهما يتكلمـان مـع الزعيم .

أقسى شىء يمكن لطبيب ان يمر به هو أن يجد نفسه زائـدًا عن الحد بلا أوراق لعب فى كمه .. دوره هو التعاطف فقط إلـى أن يموت الفتى ! ..

على الأرض خارج الكوخ جلس بسام وعلاء .. بسام يـشعل لفافة تبغ أخرى ، وكان قد جلب معه عشرين علبة لأنه يخـشى ألا يجد ما يكفيه .. وقد كان محقًا ...

قال بسام :

ــ « هذه مهمة قذرة .. علينا أن نراقب الفتى وهو يموت .. أمقت هذا بشدة .. لقد رأيت صراصير تلعب دورًا أكثر إيجابيـة من هذا .. »

قال علاء مفكرًا :

ــ « لسنا مجردين تمامًا .. هناك حيلة قـد تنجح . والسؤال هنا هو هل معنا (كيتامين) و(دورميكام) ؟.. »

هـذان مخـدر ومهـدئ قصيرا المفعول .. يـستعملان فـى الجراحات الصغرى .. بالطبع كان منهما الكثيـر فـى الحقيبـة الطبية التى يحملانها .. لابد أن تكون قادرًا على إجراء جراحـة بسيطة عندما تعمل فى أحراش أفريقيا ..

قال بسام وعيناه تتسعان فضولاً :

ــ « نعم .. معنا .. وسأكون شاكرًا لو شرحت لى ما تزمـع عمله .. »

قال علاء :

ــ « سوف نجرب علاج ميلووكى إذن .. .. »

★ ★ ★

تجربة ميلووكى هى محـاولة يائسة قام بها أطباء ميلـووكى Milwaukee فى الولايات المتحدة . هناك فتاة مراهقة تعرضـت لعضة من قط مسعور وتجاهلت الأمر .. بعد فترة بدأت أعراض السعار وبدأت ترى الأشياء مزدوجة ولعابها يسيل . هذا معنـاه أنها صارت جثـة حيـة . لقـد صدر الحـكم بالإعـدام عليها بلا استئناف ..

هنا فكر الأطباء : إن مخ المريض يظل سليمًا نسبيًّا أثناء هجمة الفيروس .. لكنه يعمل بالطريقة الخطأ . لو أرحنا هذا المخ بالتخدير أثناء نشاط الفيروس فلربما استطاع الجهاز المناعى أن يطرده بعد فترة ... أى أننا سنريح المخ إلى أن ينهى الفيروس ما يمارسه من شغب .. كأنك تغلق محلاً أثناء هجوم البلطجية إلى أن ينتهى ما يقومون به من تدمير ، ثم تفتحه بعد ذلك ..

بالطبع وافق والدا الفتاة على التجربة .. لن يخسرا أى شىء فابنتهما ميتة بالفعل . ليس هناك وضع أسوأ ..

هكذا بدأ الأطباء إعطاء الفتاة خليطًا من مادتى (كيتامين) و(دورميكام) أو (ميدازولام) لإبقائها فى حالة تخدير دائمة . وبالطبع أعطوها بعض أدوية الفيروسات مثل ريبافيرين . استمر هذا ستة أيام ثم أعادوها للوعى ، فكانت المفاجأة أنها شفيت من الفيروس .. أول حالة سعار تشفى فى التاريخ .. وما زالت الفتاة حية ترزق اليوم ، وهى بالمناسبة تحب الكلاب جدًّا !

كانت هذه محاولة بطولية عبقرية ، وقد جُربت بعد ذلك على 16 حالة لكن لم يحقق معظمها هذه النتيجة الباهرة ..

هل السبب هو ضعف الفيروس الذى أصاب الفتاة منذ البداية ؟ أم أن هناك شيئًا لا نعرفه ؟

علاج ميلووكى ليس مضمون النجاح لكنه فتح نافذة صغيرة على الأمل .. فتح نافذة يدخل منها النور إلى ظلمات القبر الشهير بمرض الكلب ..

الآن كان علاء يفكر فى شىء مستحيل ، وهو تجربة علاج ميلووكى فى قرية (ألفا أومار) شمال غربى الكاميرون . هذا شىء شبه مستحيل طبعًا لأنك تحتاج لمضادات فيروسات وتحتاج لطاقم تمريض مذهل ، وعناية مركزة يصعب أن تجدها إلا فى مستشفى أمريكى ..

لكن ماذا يخسره هو أو الفتى ؟ من الصعب أن تزيد الطين بلة فى وضع كهذا ..

شرح خطته لبسام الذى راح يعرق بشدة ويجفف جبينه مرددًا :

ـ « يا لطيف !.. يا لطيف !.. معناها أنت تهذى (بارشا) .. »

لكن الحجة قديمة وليس هناك سواها . ماذا عسانا نخسره ؟ إن السيارة عائدة خلال أيام ، فلو استطعنا أن نبقى الفتى حيًّا تلك الأيام فربما كانت فرصته أفضل .. سوف ننقله لسافارى ليكمل علاج مولووكى ...

علاء سيكون سعيدًا جدًا بهذا النصر ، لكن ـ الأهم ـ سيكون فخورًا . يمكنه أن يتخيل الورقة العلمية التى سيقدمها عن هذه الحالة والتى ستجد مكانها المؤكد فى (المجلة الأمريكية لطب المناطق الحارة) .. بل إن مكانه محجوز على غلاف النيوزويك .. تجربة علاج ميلووكى فى قرية نائية من قرى الفولانى .

شرحا للزعيم المتشكك فى كل شىء ، وشرح بسام لـ (فطوماطا) أن هناك أملاً واهيًا جدًّا لكنه موجود . وشرح كلاهما لبودرجا ما سيتم ..

بحث علاء فى حقيبة العقاقير ، ثم ملأ محقنًا بالدورميكام (ميدازولام) وحقن الفتى ، ثم ملأ محقنًا بالكيتامين وحقنه حقنة أخرى .. سوف يتكرر هذا على أوقات منتظمة ..

يارب .. دعا علاء الله . الفتى ميت لا محالة لكن لا تجعل نهايته على يدى أنا .. لا تجعلنى أقتله من حيث أردت عونه ..

كان على الطبيبين الإنتظار .. وكان علينا كذلك أن ننتظر إلى ليلة غد لنعرف ما حدث فعلاً .

★ ★ ★

الليلـة السابعة

مرحبًا بكم ..

تكلمنا عن محاولة علاء شـبه المـستحيلة لتجربـة عــلاج ميلووكى ..

لم يبد شىء ملموس على كل حال ، سوى أن الفتى غرق فى نوم عميق . صار أهدأ وكف عن تعذيب مــن يحيطــون بــه .. وبالطبع لم يعد من داع لتقييده بالحبال .. ذلك المنظر المخيــف الذى كان يقض مضجع علاء كلما رآه ..

لو أنكم يا أبناء الشمس رأيتم علاء وقتها !

كانت عيناه حمراوين كالدم ، وشعره منتفش لم يعرف المشط منذ يومين ، وذقنه شعثاء كالمذعوبين فى الأفلام التى لا ترونها ..

هل سمعتم عن المذعوبين ؟.. لا طبعًا . أنا مزى ، لهذا أعرف كيف يبدو المذعوبون .. بل أعرف السينما كذلك .. هــذا نــوع فريد من السحر حيث يجلس النــاس فى قاعة مظلمة يشاهدون رؤى حية على جدار عملاق . هذه أشياء لن تروها أبدًا .

علاء وبسام توقفا عن الطعام تقريبًا .. ولم تعد جرعات اللبن كافية .. لقد فقد كلاهما الكثير من الوزن بسبب التوتر ...

راح علاء يجرب كالمجنون أن يعيد تشغيل الهاتف .. لا جدوى . جرب حيلة إعــادة الشــحن بورقتى شجر ليكتشف أنها فاشــلة تمامًا .. شبكة الإنترنت تعج بالنصابين كما هو واضح . الــزعيم أرسل بعض الرجال إلى أقرب مدينة ليأتوا بعون طبى .. لكــنهم يمشون فى تؤدة والعصى على أكتافهم كأن الزمن كله لــديهم . من الواضح أنهم لن يصلوا إلا بعد أربعــة أو خمــسة أيــام .. بالتأكيد سوف يكون (مامادو لامين) جثة هامدة وقتها ..

لم يقبل علاء هذا .. ببساطة لم يتخيل أن توجد قرية منعزلــة إلى هذا الحد الشنيع ... والأدهى أن صورة ابنته سارة لا تفارقه .. الشيطانة الصغيرة الرطبة كبرعم وردة .. راقدة على ظهرها تنظر للسقف وتناغى .. تصدر قرقرة عذبة خفيضة من حلقها ..

لابد أن برنادت تقوم بتغيير حفاضتها الآن .. حفاضة ســارة طبعًا .. باسلة رقيقة نبيلة . لقد صارت له أسرة وصار له بيت ، وهذا بقدر ما أضفى نكهة عذبة على حياته قد جعلها أكثر قلقًا ..

كم من مصائب يمكن ألا يحدث فى ساعة كهذه ؟.. كـل شـىء ممكن ..

وهو عاجز عن رفع سماعة الهاتف للاتصال أو سماع صوت الحبيبتين ..

تبًا .. لقد كان انتقامك قاسيًا فعلاً يا خواجه باركر . أقسى مما تصور علاء . وكل هذا من أجل عينى ليفى .. لو أنصف لكان ليفى الآن فى أحراش الكونغو والغوريلات تطارده لتأكل مؤخرته ..

لكن غدًا ناظره قريب ، وهو قد لقن الوغد عـدة دروس مـن قبل .. سوف يعود وينتقم ...

★ ★ ★

كان هذا عند الغروب عندما ظهرت فطوماطا حاملة العشاء .. عشاء مبكر فعلاً .

لم ترحل بل جلست على الأرض قرب الطبيبين وهما يلتهمان الطعام . كانا قد فقدا شهيتهما لذا كانا يـأكلان بـدافع الواجـب لا أكثر ...

صوت المؤذن ينادى لصلاة المغرب ، مع لون العـالم الأزرق البارد .. جو مثير للشجن فعلاً .

ظهر بودرجا من مكان ما ، وسرعان ما افترش الأرض وراح يلتهم الطعام بلا كلمة .. بودرجا لا يندهش أبدًا وإنمـا يراقـب الحياة تجرى كأنه رأى كل هذا من قبل .. كنت هنا من قبـل .. رأيت هذا من قبل .. هذا هو التعبير الدائم على وجهه ..

لما فرغ الثلاثة من الطعام ، دنت فطوماطا من بسام أكثـر ، وابتسمت له من جديد ، ثم قالت وساعدها بودرجا على الكلام :

ــ « مامادو ينام فى سلام .. احسب أن علاجكما سينجح .. »

كان هذا تماديًا فى التفاؤل بدا لعلاء صادمًا .. لكنه لم يجـسر على أن يهدم تفاؤلها .. لن تدفعه الدقة إلى أن يقـول لهـا إن أخاها سيموت .. .. بعد يومين سوف ينام فى سلام غير مسبوق وللأبد ..

وراحت تعبث فى القواقع المتدلية مـن خـصلات شـعرها .. أناملها طويلة نحيلة مخضبة بالحناء .. ثم قالت :

ــ « يخيل لى أن الله أرسلكما من أجله ... »

هنا قال علاء فى كياسة :

ـ « قد حان الوقت أيتها الجميلة كى تخبرينا بالوحش الذى عض أخاك .. هل هو كلب ؟.. »

لم ترد وكأنها لم تفهم ، فتناول قلمًا وورقة .. وراح يخط على الورق رسمًا لا بأس به لكلب ..

ـ « ربما هو ذئب ؟.. »

ورسم كلبًا منتفش الشعر حول رقبته .. ثم رسم وطواطًا ... ورسم فأرًا ..

كانت هى تحملق فى الرسوم وقد فتحت فمها انبهارًا وبدت مستمتعة جدًا . كأنه يفعل ذلك ليبهرها وليس ليسأل ...

راحت تشير للصور وتقول فى انبهار كطفل :

ـ « هذا وطواط ! .. هذا قط !!! .. »

يا لها من طفلة بلهاء ! ... الأطفال يفعلون هذا عندما يرون كتابًا فيه صور . المشكلة أن قائمة المتهمين طويلة جدًا .. هناك الظربان وهناك الجمال والثعالب ... .

علاء لا يعرف كيف يرسم ظربانًا بفرض أن هناك واحدًا فى أفريقيا .

على كل حال من المؤكد أنه لن يحصل على نتيجة ، فالفتاة لا تريد الكلام مثل أبيها ...

أشعل بسام لفافة تبغ فمدت يدها تتلمسها فى فضول .. ثم قربتها من شفتيها وقالت :

ـ « جدى كان يلف أعشابًا مثل هذه .. »

وقربت المبسم من شفتيها وسحبت بعض الدخان .. هكذا انفجرت تسعل حتى كادت تبصق رئتيها .. وسالت دموعها قبل أن ينصحاها ألا تفعل ..

لما استردت أنفاسها استعاد منها بسام اللفافة وانفجروا يضحكون .. بعد قليل راحت تضحك بدورها . قال علاء لنفسه إنها ستنصح بسام بعدم التدخين كعادة أى فتاة معجبة بفتى .

دنت من بسام أكثر وقالت شيئًا ما ثم عادت تسعل ..

لما ابتعدت ظلوا يراقبونها للحظة ، ثم قال علاء لبسام :

ــ « هل تحتاج لترجمة ما قالته لك ؟.. »

هز رأسه فى برود أن لا . يعرف طبعًا أن علاء يتحرق شوقًا لمعرفة ما قالته . لذا صمم على أن يلزم الصمت ليحرق أعصابه ..

بعد قليل همس بسام باسمًا وهو ينفث الدخان :

ــ « قالت كلمة واحدة .. الدغل !.. »

ــ « يا سلام .. وكيف عرفت ؟.. »

ــ « قالتها بالعربية .. »

قال علاء فى غيظ :

ــ « ربما لم تكن تتحدث بالعربية .. ربما كلمـة (الـدغل) معناها (أنت خنزير) فى لغة الفولانى .. »

تهلل وجهه وداعب لحيته النامية وقال :

ــ « سأراهن على أنها تعرف بعض العربية .. »

قال علاء :

ــ « وما علاقة الدغل بما أصاب أخاها ؟.. »

فى خبث وبطريقة مراوغة لعوب قال بسام :

ــ « ليس الأمر متعلقًا بأخيها .. تريد أن تقابلنى .. »

ــ « فى الدغل ؟.. »

ــ « نعـم .. هـذا مجتمع مغلق ومحافظ فلا مكـان للعشاق إلا فى الدغل .. »

ــ « فى الدغل ؟.. »

ــ « فى الدغل .. »

قال علاء فى حزم وغيظ :

ــ « اسمع يا فتى .. علاقاتك العاطفية لا تهمنى فى شـىء ، لكن لا سبيل للعبث ونحن فى قريتهم وتحت قبضتهم .. ثم إنهـم متحفظون كالعـرب تمامًا .. كأى قرية فى بلـدك أو بلـدى ... سوف تجلب لنا المصائب .. »

نهض بسام وتثاءب فى رضا ، فبدا كأنه تمثال أسـود يقـف أمام خلفية الغروب . وقال :

ــ « من أدرانى أن الأمر ليس مهمًا فعـلاً ؟.. أعتقـد أننـى سأذهب ... »

ـ « أنصحك ألا تفعل .. »

قال بسام بلهجة ذات مغزى :

ـ « علاء .. أنا رجل ناضج ولست مراهقًا .. أرجو أن تتركنى وشأنى .. لا تزر وازرة وزر أخرى ، فلن يعاقبوك معى لو حدث شىء .. جان بول سارتر قال إننا مسئولون عن اختياراتنا .. »

نسى علاء التأثير الفرانكفونى الواضح لسارتر .. فابتلع أفكاره وكلماته وقرر أن يسكت ويصمد ..

عندما جاء منتصف الليل ـ وبعد إعطاء الفتى مامادو جرعة منومة أخرى ـ تمدد ثلاثة الرجال فى تلك الخيمة التى أعدها لهم رجال الفولانى . حشايا على الأرض وسقف من القماش ، ودن مليء بالماء مع بعض الموز على سبيل الضيافة ..

تلاعب النعاس بعينى علاء للحظة ، ثم فتح عينه المنهكة فرأى (بسام) ينهض ويتجه نحو الباب .. وبعد لحظة كان قد توارى فى الليل ...

قال علاء لنفسه إن بسام مندفع حار العواطف ، ولسوف يسبب هذا الاندفاع ألف كارثة ... لا شك فى هذا ...

فكر بعض الوقت فى الظلام ، ثم شعر أن جفنيه ثقيلان جدًا .. صعوبة شاقة فى البقاء متيقظًا .. إرهاق وانفعالات اليوم تطالب بضريبتها . وعقله يعلن عن بدء رحلة الظلام إلى عالم آخر ..

لهذا غاب عن الوعى من جديد ... ربما حلم ببسام وربما لم يحلم .. حلم بالفتى المسعور أو لم يحلم ..

المهم أنه صحا من النوم على صوت صرخة شنيعة تأتى من بعيد ..

صوت بسام بلا شك ..

★ ★ ★

الليلة الثامنة

مرحبًا بكم ..

سوف أترك علاء وصديقه التونسى بعض الوقت ، فى قرية الفولانى تلك .

سوف أبحر معكم يا أبناء الشمس عبر المسافات والزمن إلى فرنسا فى القرن التاسع عشر ..

كان الكلب ينبح كالمجنون ويثب على قضبان القفص ، والزبد يتناثر من شدقيه ... عضة واحدة سوف تقودك لقبرك .. لعابه يكفى لتكتب وصيتك ..

يتعاون المساعدان على فتح شدقيه بالقوة وهما يرتجفان ، بينما يجلس الكهل العصبى نافد الصبر قصير النظر قريبًا من القفص ، ويمد أنبوبًا زجاجيًا داخل هذا الفم . ويشفط بشفتيه ليدخل اللعاب الأنبوب . لو ارتكب خطأ واحدًا فهى النهاية ..

الرجل عالم فرنسى عبقرى اسمه باستير(*) .. لوى باستير .. هو فى سن الستين اليوم .. وهو ليس طبيبًا بل هو كيميائى . من الغريب أنه يصر على تأكيد هذا دومًا كأنه يفخر به ..

ــ « أنا لست طبيبًا .. أنا كيميائى .. »

باستير عالم بلا شك ، لكنه اقل صبرًا وأقصر نفسًا من خصمه الألمانى المرعب كوخ . سريع الملل يحب الضجة الصحفية جدًّا ، ومعظم تجاربه غير مصمم بدقة .. كأنه رجل أطلق ألف طلقة . بالتأكيد أصابت الهدف عشر طلقات ، بينما كوخ لم يطلق سوى عشر طلقات أصابت الهدف كله .. وبرغم هذا من مثل باستير ؟ من السهل أن ننتقده ونحن هنا آمنون بعيدون عن عضات الكلاب ..

الرجل قد خاض حربًا عنيفة ضد أنواع الجراثيم ، وعلم الناس أن هذه الأشياء الصغيرة المدعوة بكتيريا قادرة على إحداث الكوارث . لكنه فى هذه المرة لم يستطع أن يجد (البكتيريا) التى تسبب داء الكلب .. لم يعرف أنه يتكلم عن فيروس .. والفيروس هو كائن متناهى الصغر يمر من كل مرشحات البكتيريا .

(*) المعلومات عن باستير تعتمد على كتاب (صائدو الميكروبات .. بول دى كرويف ، كتب الجيب 1926)

الحقيقة أن باستير كما قال ظل طيلة حياته يذكر صرخات هؤلاء الذين هاجمهم ذئب مسعور فى شوارع أربوا .. المدينة التى نشأ فيها ..

كان هؤلاء البؤساء قد انتهى أمرهم . لم يعد من شىء يمكن عمله .

منذ مئة عام كان هناك قانون فى فرنسا يسمح لأهل الشخص المسعور بأن يسمموا قريبهم أو يقتلوه . وكان باستير يدرك أن من ينقذ البشرية من هذا الداء سوف يخلده التاريخ .

عندما صار عالمًا شهيرًا استرجع هذه الذكرى القاسية ...

فى المستشفى رأى صبيًا مصابًا بالكلب . وقد أخذ عينة من لعابه تحت المجهر ثم أعلن فى انتصار :

ـ « الكلب تسببه بكتيريا تشبه رقم 8 .. »

وهو اسم ليس علميًا تمامًا لكن الصحافة اهتمت به .

طبعًا يعرف أى صبى فى مدرسة أن هذا طريق مضلل ولا يوجد شىء كهذا ، لكن تذكروا أن باستير كان يتحرك فى الظلام .. يمشى فى أرض لم يمش فيها مخلوق من قبل . هذه هى مشكلة الافتقار إلى العدل .. تبدو هذه الأمور بديهيات لك لكنها لم تكن كذلك بتاتًا فى شارع أولم بباريس سنة 1882 ..

بعد بحث مدقق أدرك أن هذه البكتيريا موجودة فى لعاب الجميع .. هذه نقطة تثبت دقة الألمانى كوخ والشروط التى وضعها لتحديد أنواع البكتيريا .

لقد كان هذا طريقًا زائفًا .

كانت المشكلة هى أنه لا يجد ما يكفيه من كلاب مسعورة .. هذه سلعة ثمينة شحيحة ، وهو بحاجة للكثير من هذه الكلاب ليجرب .

هكذا خطر له أن يحدث وباء الكلب فى المختبر . وبهذا يمكنه دراسته بدقة .

جاء اليوم الذى جلبوا له كلبًا مسعورًا فى المختبر وضعوه خلف القضبان .. العواء المجنون يرتج له المكان ، والكلاب السليمة ترتجف خوفًا . هنا فكر (رو) مساعد باستير الباسل فى أن يسحب لعاب الكلب ثم يحقنه فى الأرانب ...

لا توجد ثوابت فى الطبيعة .. الطب لا يخضع لقواعد . لهذا كانت بعض الأرانب تموت وهى تتشنج ميتة شنيعة بشعة ، بينما أرانب أخرى تظل حية مرحة تعيش حياتها بالكامل !

باستير العصبى نافد الصبر كان يعض على السيجار ويطلق الشتائم :

ــ « هذا ليس علمًا ! .. هذا تهريج !.. »

ثم فكر مليًا وخطرت له فكرة :

ــ « الكلَب مرض جهاز عصبى أصلاً .. كل شىء يدل على أنه يستقر هناك .. هناك فى المخ سوف نجده ونجرى عليه التجارب .. »

نظر له تلميذه المخلص رو ولم يدر فيما يفكر الرجل ..

قال باستير :

ــ « لن نحقن اللعاب تحت الجلد .. سوف نحدث فتحة فى المخ نصب فيها اللعاب .. سوف يكون مخ الحيوان هو مزرعة البكتيريا التى أزرع عليها !.. »

وراح رماد السيجار يتساقط على سترته الثمينة ..

كان باستير لا يعرف شيئًا عن الطب ، لكن رو كان جراحًا بارعًا .. وقد عرض أن يثقب جماجم الكلاب ليحقن فيها اللعاب ، ثم يفيق الكلب ولا يموت ..

كان باستير برغم عصبيته رقيق القلب ولم يطق الفكرة :

ـ « تثقب جمجمة هذا الكائن البائس ؟ هل تتخيل أنه سيظل حيًا ؟.. سوف تؤذيه بشكل غير مسبوق .. »

لكن رو كان يعرف ما يفعله ، وهكذا بعد يومين قابل باستير عند دخوله المختبر ... لدهشة العالم الكبير وجد كلبًا سعيدًا يتواثب حول رو ولسانه يتدلى وذيله يهتز .. فى جمجمة الكلب كان هناك ثقب صغير واضح ..

لقد فعلها رو !.. ثقب جمجمة الكلب ووصل إلى مخه ولم يمت . باستير كما قلنا رهيف القلب جدًا ولا يجسر على أن يؤذى حيوانًا حيًا .. أعتقد أنه لم ير جراحة فى حياته ..

كان باستير بطبعه يخشى الكلاب جدًا ، لكنه هبط على ركبتيه وراح يداعب الكلب ويربت على عنقه :

ـ « هذا الكلب سيفتح بابًا فى تاريخ الطب .. »

بعد أسبوعين كان لعاب الكلاب قد تم حقنه فى أمخاخ كلاب أخرى ، وسرعان ما كانت الحيوانات البائسة تعوى وتضرب قضبان القفص ولعابها يتناثر ..

لقد نجح باستير فى نقل العدوى إلى حيوانات المختبر بطريقة مضمونة وسهلة .

بدأ باستير البحث عن البكتيريا . بالطبع لم يجد شيئًا .. أدرك أنها صغيرة جدًا جدًا .. لا تتوقف عند مرشحات البكتيريا .. ولا يمكن أن تزرعها فى الأوساط المخصصة لزرع البكتيريا . إذن مزرعتنا الوحيدة هى أمخاخ الأرانب .

لا يوجد دليل على وجود هذا الشىء إلا الموت الشنيع للأرانب وهى تتشنج . لقد حقنوا أمخاخها بالفيروس الذى أخذوه من الكلاب المسعورة .

كان باستير يتحرك فى ظلام .. ظلام لم يمش فيه أى بشرى قبله ، ولهذا لم تكن هناك معالم على الطريق تهديه .. لم تكن هناك خطوات سابقة ..

لا شىء سوى حدسه . وحدسه جعله ينظر للأمر بطريقة (راسبوتينية) .. راسبوتين كان يشرب جرعات متزايدة من

الزرنيخ إلى أن صار جسمه مقاومًا لهذا السم ... ماذا لو استطعنا أن نضعف هذا الوحش المفترس الموجود فى لعاب الكلاب ؟

توقفت الأبحاث لفترة طويلة لأن (رو) المخلص تلميذ باستير الذى لا يقدر بمال ، اضطر للسفر مع (توييه) إلى مصر لدراسة وباء الكوليرا هناك ، وهناك أصيب توييه بالكوليرا ومات وعادت جثته إلى أوروبا .. ربما كان هذا من تصاريف القدر ، فلم يكن باستير ليستمر فى أبحاث الكلب لو كان (رو) هو الذى مات ..

لقد انتصف الليل .. هناك ذئب يعوى خارج حدود القرية .

أتراه يعانى الكَلَب ـ بفتح الكاف واللام ـ مثل كلاب باستير ؟ لا نعرف طبعًا ولا نحب أن نعرف ..

لقد انتصف الليل يا أبناء الشمس .. عودوا لأكواخكم ولنكمل حكايتنا غدًا ...

★ ★ ★

الليلة التاسعة

مرحبًا بكم ..

عندما دوت الصرخة من بعيد ، احتاج علاء للحظة كى يخرج نفسه من عالم الحلم .. وكما يحدث عادة ابتكر عقله الباطن حلمًا معقدًا طويلاً ينتهى بصرخة .. ظاهرة تأليف الأحلام بأثر رجعى هذه ، عندما تسمع الصرخة فيتمدد الماضى فجأة ليتسع لقصة تنتهى بصرخة .. هذه عبقرية العقل الباطن التى حيرت الجميع ..

بعد هذا احتاج للحظة حتى تعود ضربات القلب لمعدلها .. وحتى تتحرك ساقاه ..

نهض مترنحًا واتجه إلى باب الكوخ . بودرجا ما زال نائمًا كالموتى .. لن يصحو أبدًا . وقف علاء أمام الكوخ ينظر إلى الظلام الدامس بالخارج .. لا يستطيع أن يتحرك خطوة من دون ضوء ..

من مكان ما ظهرت المشاعل .. بعض الرجال ظهروا وهم يحملون المشاعل ، ومن بينهم إبراهيما ابن الزعيم . من بين القادمين رأى علاء وجه فطوماطا الجميل . كانت ممتقعة وقد بدا الرعب على وجهها .. هذه الفتاة لم تر بسام ولم تلقه بعد .

بسام وحده فى الدغل ، ولعل الفتاة حددت له ساعة معينة .. منتصف الليل أو عندما يتوارى القمر أو عندما يبزغ القمر .. إلخ ... أى شىء ...

هرع الرجال ومعهم علاء إلى الدغل حيث كانت الصرخة ..

اجتازوا عدة أشجار متشابكة .. وفى النهاية كانت هناك مساحة بين الأشجار ، وفى مركزها بالضبط كان شىء يرقد على الأرض كأنه كومة ثياب ممزقة ..

على ضوء المشاعل رأى علاء وجه بسام .. بسام صديقه ، لكنه كان فى حال سيئة فعلاً .. وجهه دام وثيابه تحولت لأسمال ..

وعندما دقق النظر أدرك أن هناك نهشات كثيرة فى بطنه وفخذيه ..

لقد هوجم .. ومهاجمه حيوان ..

قال بسام وهو يحاول أن يجلس ليشعر بأنه على قيد الحياة :

ـ « لا تخف يا علاء .. ما هاجمنى هو ذئب .. ظهر من الأحراش فجأة وأسقطنى أرضًا ومزق فخذى وبطنى ثم فر هاربًا لما صرخت .. »

سأله علاء وهو يركع جواره :

ـ « هل أنت بخير ؟.. »

قال بسام ساخرًا برغم الألم الذى يعصف به :

ـ « هل ترى أننى بخير حقًّا ؟.. »

ـ « أعنى أنك مجروح بشدة .. مجروح كمن مرت عليه دبابة لكنك حى ولم تنزف .. »

هز بسام رأسه وابتسم وحاول النهوض ..

تعاون الرجال كى يحملوه ، لكنه أصر على أن يمشى على قدميه ، واستند على أحد الرجال .. ومضى الموكب الكئيب عائدًا إلى القرية وسط الأشجار .. بقعة نور ذهبى تخرج من الدغل ..

انفرد علاء بإبراهيما وسأله همسًا بخليط من العربية والفرنسية و(الفولفود) لغة الفولانى :

ــ « ذئب ؟.. »

قال إبراهيما وهو يشمخ برأسه :

ــ « هناك عدد منها فى الدغل .. هى لا تدخل القرية أبـدًا .. صديقك أخطأ عندما ذهب هناك .. »

ــ « أعتقد انه أراد أن يبول .. »

نظر له إبراهيما للحظة بوجه قاس متصلب ثم قال :

ــ « يبول ؟ . يتوغل كل هذا فى الدغل ليبول ؟.. »

ــ « إنه شديد الخجل لو لاحظت هذا ...... »

كان علاء يفكر فى أن هناك أحمق واحـدًا فى القصة ، هـو فطوماطا .. هى التى اقترحت الدغل ، ولعلها لم تقصد ذلــك .. ولعل (بسام) أساء الفهم .. ولربما أساءت هى التقدير وحسبت أن المكان آمن ..

طبعًا لا يجسر على أن يخبر إبراهيما برأيه ولا ما يعرفــه .. هؤلاء القوم متحفظون كالعرب تمامًا . لن يلومه على أن أختــه طلبت مقابلة شاب غريب فى الدغل وهذا يعرض حياته للخطر !.. سوف يسعده هذا جدًّا ... لكن علاء يريد أن يعرف .. هل هــذا الذئب هو الذى .... ؟

★ ★ ★

فى الكوخ رقــد بســام على ظهــره بينما أحاط به الرجال بالمشاعل ، وناول أحدهم سكينًا لعلاء كى يمزق بها الثيــاب .. وهكذا راح بسام يكشف هذه العجينة من القماش والدم واللعــاب والعرق .. أدرك أن الأمر خطر فبحث عن قفازى الجراحة فدس فيهما يديه ..

كانت هناك ثلاث عضات . اثنتان فى أسفل البطن وواحدة فى الفخذ ، والأخيرة كانت بليغة مزقت الكثير من الأنسجة . كــان

هناك دم لكنه ليس غزيرًا . زحف علاء ليبحث عن حقيبته .. فتحها وأخرج قطعة صابون ثم طلب بعض الماء .. على ضوء المشاعل المتراقصة جاء ما طلب فراح يغسل الجراح بعناية .. لا تستعمل المطهرات فى حالات عضات الحيوان .. إنها تثبت الفيروسات . الدرس الثانى الذى ينساه الأطباء وتذكره علاء هو أنك لا تخيط عضات الحيوان أبدًا .. لسبب ما هناك إغراء شديد يدغدغ الأطباء كى يخيطوا أى جرح أو يثبتوا قسطرة بولية لأى مريض .. هاتان عادتان سيئتان يجب تقليلهما إلا عند الضرورة القصوى ..

كان هناك لعاب .. لا شك فى هذا ...

نظر علاء فى قلق إلى إبراهيما ثم سأله همسًا :

ــ « هل هذا الذئب هو من عض أخاك ؟.. »

لم يرد إبراهيما .. ظل وجهه صلبًا وعض على شفتيه السوداوين .. لكن الإجابة غالبًا هى نعم ..

ليس الذئب نفسه بالطبع .. الذئب المسعور الذى هاجم مامادو مات بالتأكيد .. ما كان ليعيش هذه الفترة كلها ، لكن من الوارد جدًّا أن يعض أفرادًا آخرين فى القطيع .. وهؤلاء الأفراد هم الذين يسببون الرعب الآن . مرض الكلب يشبه داء مصاصى الدماء فى القصص كثيرًا ... عض الضحية تصير مصاص دماء بعد أيام وتعض ضحايا آخرين بدورها ..

لقد كانوا يعرفون .. وقد أخفوا الحقيقة لأنهم لا يريدون الاعتراف أن ابن الزعيم مقضى عليه بالهلاك .. وحتى لا يسيئوا لسمعته كما قلنا ... كانوا يعرفون بوجود ذئاب مسعورة فى الدغل ..

هذه الجراح ملوثة بالكَلَب إلى أن يثبت العكس .. إثبات العكس هو أن تقتل الذئب وتشرح مخه وتفحصه تحت المجهر بحثًا عن جسيمات (نجرى) المميزة لفيروس السعار . لو لم تجدها يمكنك أن تعلن أن الصديق التونسى قد نجا . ليس قبل ذلك ..

من دون جثة الذئب سيكون من الضرورى أن تعتبرها حالة كلب وتعمل على هذا الأساس .

يا بسام يا أحمق .. ليتك لم تندفع وراء عاطفتك . ليتـك لـم تسمع لفظة (دغل) هذه وعلاء يشك كثيرًا فى أنها قيلـت لـك فعلاً ، لأن الفتاة كانت تعرف ما يوجد هناك ..

فتح علاء الحقيبة فبحث عن زجاجة مضاد الكزاز (التيتانوس) وبيد راعشة ملأ المحقن ثم أفرغه فى بسام .. كان الأخير يعرف معنى هذا الإجراء طبعًا .

ثم بحث علاء عن حقنة مضاد حيوى فأعطاها له .. لقد قـام بما هو مطلوب منه لكن ما زال الجزء الأهم ناقصًا .. لابد مـن مصل الكلب ولقاحه .. المصل يعطى فورًا حـول الجـرح وفـى العضل .. لو كان موجودًا طبعًا ...

لابد من بدء لقاح الكلب فورًا ... لو لم يؤخذ فلسوف يلحـق بسام بمامادو ..

على الأقل ما زال الوقت مبكرًا . مـا زالـت هنـاك فرصـة للحصول على اللقاح والبدء به ..

قال بسام وهو يسمع صوت أفكار علاء :

ــ « لا تقلق .. يمكن أن تجرب على علاج ميلووكى .. »

قال علاء فى قلق حقيقى :

ــ « لا تمزح .. علاج ميلووكى محاولة يائسة لعـلاج مـن بدأت عندهم الأعراض فعلاً . هو مقامرة لمن ليس لـديهم مـا يخسرون . أما نحن فلدينا الكثير لنخسره .. »

ــ « ربما لم يكن الذئب مسعورًا .. »

ــ « لماذا هاجمك بهذه الشراسة ؟.. »

ــ « وهل فى وسـع الذئب أن يفعـل شـيئًا آخر ؟ .. لو لم يهاجمنى لاعتبرت أننى ملعون .. »

كان علاء يحك لحيته مفكرًا ..



قال إبراهيما بلهجة حازمة :

ـ « الوضع مطمئن يا دكتور .. سوف نعود لخيامنا ولو أردت شيئًا فأنت تعرف كيف تجدنا .. »

وبدأ ضوء المشاعل يتسرب من الخيمة ، والظلام ينثر نفسه بقعة تلو بقعة حتى التحمت كل أجزائه ...

لكن علاء ظل جالسًا جوار بسام يفكر ..

★ ★ ★

الليلة العاشرة

مرحبًا بكم ..

الآن تضاء المشاعل حول مجلسنا .. المشعل تلو المشعل .. ترتفع .. الدخان والوهج ..

يدور دن الشراب علينا ، ثم تجلب لى النساء صحفة عليها الكاسافا .. أعجنها بيدى وألتهمها ..

لولا حكاياتى لما استطعت أن أسد رمقى .. ربما مت جوعًا ...

شكرًا لك يا (مجولو) ..

الآن أصغوا لى ولا تتكلموا ..

لقد رجع (رو) من مصر سالمًا لحسن الحظ ...

نعود إلى البروفسور باستير الذى كان غارقًا فى تجاربه على الكلاب فى ذلك الوقت من القرن التاسع عشر . كان الرجل قد حبس مساعديه فى المختبر وراح يراقبهم كأنهم عبيد . تأتى خطيبة (رو) الفاتنة لتقابله فيطردها من على باب المختبر ..

يأتى صديق شامبرلان يدعوه لشرب كأس من الخمر فيقابله على الباب صائحًا :

ـ « إنه مشغول .. مشغووووول !... ألا ترى ذلك ؟.. »

ظلوا يعملون عدة أشهر محاولين إضعاف الفيروس اللعين (هم لا يعرفون أنه فيروس طبعًا) .

لا جدوى .. الأرانب البلهاء مصممة على الموت كلما تلقت الحقنة باللعاب . وقد قنط رو زميله وأيقنا أنه لا جدوى ، لكن باستير ظل متحمسًا مفعمًا بالطاقة .. كان متأكدًا من أنه سيجد فتحة فى الجدار .

راحوا يكررون نفس التجارب الفاشلة عشرات المرات .. بلا أى منطق ..

فقط كانوا يحومون حول الموت .. يقتربون منه مرارًا .. يشفطونه بالممصات كل يوم .. لا يحميهم منه سوى قطعة قطن صغيرة على الماصة .

جاءت المعجزة ذات صباح ..

كان هناك كلب نقلوا له داء السعار .. أصيب بالجنون والتوحش .. بعد أيام فوجئوا به يتحسن ويسترد قواه . كان هذا مدهشًا بالفعل ..

قال باستير لمن معه :

ـ « يمكن أن ننتظر بضعة أيام ثم نحقن اللعاب القاتل فى جمجمته من جديد !.. »

لا يوجد تفسير لهذا .. كأنه أراد أن يعاقب الكلب لأنه نجا أول مرة ..

قام رو بثقب جمجمة الكلب كالعادة وقام بحقن السائل المميت .. بدأ الجرح يلتئم والكلب سليم . وانتظر الجميع عودة الأعراض المريعة لكنها لم تأت قط ! ... لقد ظل الكلب سليمًا ..

وأدرك الجميع فى دهشة أن الكلب صار محصنًا ضد الداء الوبيل !



ـ « عندما يصاب الكلب بالسعار وينجو منه ، فإنه يكتسب مناعة .. علينا أن نعرف كيف نروض الفيروس بحيث يتحمله الجميع . يجب أن نضعف هذا الوغد .. »

بدأ باستير يخترع تجارب عجيبة ..

فى كل يوم ينادى رو وتشامبرلان ويشرح لهما الخطط الجنونية لتجارب الغد .

السعار يجب أن يضعف ...

قال عنه رو إنه كان فى تلك الفترة مثل بيتهوفن عندما شاخ وتقدم فى العمر . كان يؤلف مقطوعات صعبة يستحيل على عازف بشرى أن يعزفها . وبرغم هذا كان يجد من يعزفونها بمعجزة ما .

فى النهاية وجدوا طريقة ممتازة ...

سوف يأخذون قطعة من الحبل الشوكى للأرنب الميت الذى أصيب بالسعار ، ثم يعلقونها لتجف فى زجاجة معقمة لمدة 14

يومًا . هكذا ضعف الفيروس .. عندما حقنوه فى أمخاخ الكلاب لم تتأثر ولم تمت .. إنه فيروس ضعيف جدًّا أو ميت ...

فكر باستير بالطريقة الراسبوتينية المعروفة :

ـ « سوف نجفف الفيروس 14 يومًا .. ثم 13 يومًا .. ثم 12 يومًا ... وهكذا ... سوف نعطى الكلاب إصابة خفيفة من داء السعار ونرى .. ربما أعطاها هذا المناعة .. »

هذا ما تم فعلاً ..

فى اليوم الأول حقنوا الكلاب بالفيروس الذى جفف 14 يومًا ..

فى اليوم الثانى حقنوها بالفيروس الذى جفف 13 يومًا ..

فى اليوم الثالث حقنوها بالفيروس الذى جفف 12 يومًا ..

وهكذا ...

حتى بلغنا اليوم الرابع عشر ... وفيه حقنوا الكلاب بفيروس مجفف ليوم واحد .. فيروس شبه حى ونشط ويمكن أن يقتل إنسانًا قويًّا ..

مرت أسابيع ..

انتظروا أن تظهر علامات المرض على الكلاب .. لقد تحملت الكلاب كل الجرعات وراحت تلعب ..

من جديد قرر باستير أن يحقن الكلاب بالفيروس الكامل ..

قام رو بصنع ثقبين فى جمجمتى كلبين تلقيا اللقاح ثم حقن جرعة عالية من الفيروس ..

بعد شهر أدرك الرجال أنهم حققوا النصر .. لقد قهروا أعتى أعداء البشرية ..

لقد تحدى الكلبان الجرعة القاتلة .

هنا يأتى دور هذا اللقاح فى إنقاذ البشرية .. كيف ننتفع من هذه التجارب ؟ هل نقوم بتلقيح البشر جميعًا أم نقوم بتلقيح الكلاب أم ماذا ؟

كان يضع خططًا مجنونة يهدمها بنفسه فى اليوم التالى .. كان رأسه شبيهًا ببيضة داخلها كتكوت ينقر ليخرج ...

إن باستير الآن يدخن بشدة .. يصمت كثيرًا .. ينام متأخرًا .. يصحو عند الفجر ...

باختصار ـ كتبت مدام باستير لابنتها ـ أبوك يمارس نفس الحياة التى بدأتها معه منذ 35 عامًا !

★ ★ ★

الليلة الحادية عشرة

مرحبًا بكم ..

عندما جاء النهار كان علاء ما زال جالسًا بلا ذرة نوم ، بينما غرق بسام فى نعاسٍ عميق كأن ذنبًا لم يعضه . نومــه هــادئ كطفل وصدره يعلو ويهبط ...

الغريب أن بودرجا ما زال نائمًا فى سلام ، لدرجة أن علاء دنا منه وركله ليتأكد من أنه لم يمت .. ما نوع الضمير النقى الــذى يمنح هذا النوم العجيب ؟.. لو كان هذا ضميرًا نقيًا فنحن جميعًا شياطين أو على الأقل سفاحو أطفال ..

نهض علاء حاملاً حقيبته وقد تذكر موعد جرعة ذلك الفتــى (مامادو) . مشى فى ضوء الشمس الذى بدأ يحــرق ويلـسع متجهًا للكوخ . هناك كانت فطوماطا على الباب جالسة القرفصاء على صخرة ، وهى تعجن عجينًا ما . وجوارها كانت قهرمانــة عجوز تمضغ بعض الأعشاب .

أدرك علاء أن الفتاة صموت وأن فى عينيها دمعتان جفتــا .. انحدرتا فرسمتا خطًّا تحت كل عين ثم جفتا . هل هذه الدموع من أجل أخيها أم من أجل بسام ؟ ... هذه فتاة توشك على فقد أخيها ، ويبدو أنها مهددة بفقد شاب عربى أعجبت به ..

حياها علاء وهو مكفهر منكوش الشعر واللحية ، ثم دخل إلى الكوخ . كان (مامادو) نائمًا فى عمق وجواره كــان إبراهيمــا يذب الذباب عن وجهه بمنشة صغيرة ...

لقد علمهم علاء كيف يقلبون الفتى من وقت لآخر منعًا لقرحة الفراش ، مع حالة النعاس العميقة التى دخل فيها هــذه . فــى البداية كان عصبيًا يضرب ويركل .. هذه المرة صار كجثة .

تفحص علاء الحدقتين بحذر ، ثم ناظر الجرح فى ردف الفتى ، وبعدها حقنه بجرعة من الكيتامين والــدورميكام .. لــن يكفــى المخزون أكثر من هذا . هذا هو اليوم الأخير فى علاج ميلووكى إذن .. فإما أن يتحسن الفتى ويظهر بعض الاســتقرار وعــودة جهازه المناعى . وإما أن تكون هذه نهايته بلا مناقشة ..

كان يعرف فى قرارة نفسه أنه سيفشل .. علاج ميلووكى لن يحدث فارقًا إلا فى ميلووكى ، حيث تساند النظرية تجهيزات هائلة فى العناية المركزة وقدرات ممتازة للتمريض ، وحيث توجد مضادات فيروسات محترمة ... . تذكر مشهد (توم هانكس) فى نهاية فيلم (إنقاذ المجند رايان) .. كان راقدًا على الأرض عاجزًا عن الحركة بينما دبابة نازية تتقدم نحوه .. لم يفعل سوى أن راح يفرغ طلقات المسدس فى الدبابة طلقة تلو أخرى .. لا جدوى .. مجرد شىء يفعله إلى أن تمزقه الجنازير ...

ثم إن علاء طلب من إبراهيما أن يرافقه لخارج الكوخ ..

على التراب الرطب المبتل بالندى ، ورائحة الماشية الصباحية .. ثمة رائحة صباحية للماشية تعرفها لو عشت قريبًا منها لفترة .. هناك جلس علاء وطلب من إبراهيما أن يجلس ..

ومن مكان ما ظهر بودرجا وقد انتفخت عيناه من كثرة النوم ... فجلس بدوره ..

قال علاء موجهًا الكلام لبودرجا كى يترجمه :

ـ « الأعراض لم تظهر على صاحبى بعد ... لذا يجب أن يحصل على اللقاح فورًا . لا يمكن انتظار عودة السيارة .. الأحداث تدور بسرعة .. »

قال إبراهيما من تحت قبعته الواسعة التى تذكرك بأبناء البيرو :

ـ « لا توجد مدينة قريبة ولا مستشفى .. فقط إنجاوانديرى .. »

ـ « وحدة سافارى .. .. »

وابتلع علاء ريقه .. أهل هذه المناطق يواجهون مشاكل شنيعة فعلاً إذا احتاجوا لمعونة صحية .. هم لا يقدرون على أن يأتوا لك ، لكن بوسعهم أن ينتظروا النجدة .. لا شك أن هناك حملات من وزارة الصحة تأتى بكثرة هنا ..

اللقاح .. لابد من اللقاح .. وربما المصل كذلك إلى أن يعمل اللقاح ..

يحتاج الأمر إلى مسيرة يومين إلى أن تبلغ نقطة يمكن أن تصل منها لوحدة سافارى .. بعد هذا تجد مواصلة إلى

إنجاوانديرى . لقد فات أوان عمل أى شىء بالنسبة لمامادو ابن الزعيم .. لا جدوى سواء جربت أم لم تجرب ، لكن بالنسبة لبسام لم يزل كل شىء فى البداية ..

قال علاء وهو يعبث بلحيته القصيرة :

ـ « أعتقد أن هذا الجرح ملوث بالسعار فعلاً ، ولو لم يكن كذلك فأنا لن أقامر .. سوف أبدأ التحرك الآن ، وأطلب منك أن تخبرنى بالاتجاه .. وأن تعطينى بعض المؤن والماء .. .. »

قال إبراهيما لبودرجا :

ـ « هذا مطلب عادل .. سوف نزودك بكل شىء .. »

وراح يشرح الاتجاه عن طريق الرسم على الغبار .. مشوار شاق حقًا .. هناك دغل سوف يتم اجتيازه ثم منطقة منبسطة أقرب للوادى .. يجب ألا تفقد اتجاهك طيلة الوقت ... يجب أن تعرف أنك تتجه للجنوب الغربى ..

قال علاء لإبراهيما :

ـ « سوف يكون الطريق شاقًا على هذا الفتى .. بسام مصاب .. صحيح أنها ليست إصابة بليغة لكنها ستجعل حرارته ترتفع ، والألم يعوقه .. وسوف يكون المشى عسيرًا .. »

نظر له إبراهيما لما تلقى الرسالة مترجمة وقال :

ـ « بالطبع لن يتحمل .. أنت تذهب وتجلب له اللقاح وتعود .. »

ـ « لا معنى لأن أقطع الطريق مرتين .. من الممكن أن يأتى معى بشىء من الجهد .. »

ثم نظر علاء إلى بودرجا وقال :

ـ « سوف يكون الأمر سهلاً نوعًا معه .. البلد بلده ويعرف القبائل وهو لساننا الذى لا نملكه .. إنه مفيد جدًا .. »

قال إبراهيما بشكل قاطع :

ـ « لا .. هو يبقى .. ! .. »

ـ « ولماذا ؟.. »

ـ « ليعنى بمامادو لامين .. لو رحلتم أنتم الثلاثة لمات (مامادو لامين) .. »

كان فى هذا الكلام منطق لا بأس به .. أخوه سيموت بلا شك .. لكن لابد من استمرار علاج ميلووكى . لن نقطعه لمجرد أن واحدًا من فريقنا قد تعرض للعض ...

فى الحقيقة كان بودرجا يستطيع .. كان ذكيًّا وقد اكتسب قسطًا لا بأس به من مهارات التمريض . يستطيع أن يعطى الدواء بشكل صحيح فى الوقت المناسب ، وهو لن يطول على كل حال . لقد انتهى مخزونهم تقريبًا .. أى أنه سيعطى حقنة أو اثنتين ثم لا يعود لديه ما يفعله . على الأقل سيموت الفتى فى سلام .. فى كرامة .. لن يموت وهو يعوى كالكلاب ..

ظل علاء جالسًا يراقب كيف تتم الأمور بسرعة وكفاءة ..

النساء يأتين ببعض الثمار وبعض الخبز وقربتين مليئتين بالماء ووضعن هذا كله فى كيسين من الجلد ... وقام إبراهيما بجدل ما يشبه حقيبة ظهر بحيث يستطيع علاء وبسام أن يحملا هذه الأشياء على ظهريهما ..

عندما استيقظ بسام أخيرًا من النوم ، كان هذا منتصف النهار ..

جاء يبحث عن علاء وهو يترنح . ومن الواضح أنه كان نومًا مليئًا بالكوابيس .. طلب جرعة من الماء فناولته النسوة دنًّا للشرب .. سأل وهو يرى الاستعدادات من حوله :

ـ « ماذا يدور هنا ؟.. »

قال علاء :

ـ « سنعود لإنجاوانديرى .. »

ـ « لكن السيارة عائدة خلال يومين .. ثلاثة على أقصى تقدير . فلننتظرها .. »

ـ « لا أعرف .. لا أضمن ... بعد هذا العمر تعلمت أن الحياة تخلو غالبًا من المفاجآت السارة .. لابد من بدء لقاح الكلب والمصل معك حالاً ... فرصة أن تكون مصابًا بالفيروس عالية جدًّا ... لن أنتظر حتى تلحق بمامادو .. »

جلس بسام على الغبار وقد بلل بالماء صدر قميصه كله . كان القميص نفسه ممزقًا يكشف عن أكثر بطنه وقد تلوث بالدم الجاف ... أشعل لفافة تبغ ونفث سحابة دخان كثيفة وقال :

ــ « كم تستغرق رحلتنا ؟.. »

ــ « ربما هما يومان . ثم مواصلة إلى إنجاوانديرى .. »

هز رأسه ودفنه بين كفيه وقال :

ــ « هل تتوقع أن أتحمل هذه المغامرة ؟.. »

ــ « أنت ما زلت سليمًا كالجرس ... يجب أن نفعل ما دمنا قادرين على ذلك .. ربما لا تعود قادرًا بعد هذا .. »

الحقيقة هى أن هناك فترات حضانة قصيرة إلى درجة أربعة أيام .. هناك فترات طالت إلى عامين ، لكن هذا استثناء .. المعدل المعروف هو ثلاثة أسابيع إلى ثلاثة أشهر .. ماذا لو كان بسام من المنحوسين ذوى فترات الحضانة القصيرة ؟

بسام يجلس شاعرًا أن العالم انهار من حوله .. فى الليل يلحق بموعد رومانسى تدعوه له فتاة رقيقة ، فيهاجمه ذئب مسعور .. ينام ويصحو فيكتشف أن عليه أن يعود لوحدة سافارى مشيًا بأسرع ما يمكن ، والألعن أن عليه أن يفعل هذا بحماس وحب !

حك بسام شعره ونظر لعلاء فى توسل وقال :

ــ « لن أستطيع الرحيل .. صدقنى .. »

يا لك من أحمق .. ليس هذا أنسب وقت للتخاذل :

ــ « بسام .. يجب أن تحاول .. »

ــ « لن أستطيع .. جسمى كله مهشم وقد بدأت حرارتى ترتفع . أرغب فى القىء كذلك .. »

أى أى !

ثم أضاف بسام :

ــ « سأبقى هنا وأنتظر .. أرى أن تفعل مثلى .. لا أعتقد أن هذه الأيام القليلة ستحدث فارقًا .. »

قال علاء بعصبيته المعهودة وقد بدأ شعر رأسه ينتفش كالديك :

ــ « بل ستحدث .. هل تعرف السبب ؟.. ببساطة لأننى منحوس ولا شىء يتم بسهولة معى أبدًا .. »

ثم نهض وركل الغبار وقال :

ـ « سوف أذهب وحدى ... سوف أذهب وأعود لك باللقاح أو تأتى طائرة سافارى لنقلك .. »

هذا يكفى الليلة ..

لقد أطلت عليكم .. أرى (حاتيما) قد نامت على كتف زوجها فعلاً ...

غدًا نكمل قصتنا ...

★ ★ ★

الليلة الثانية عشرة

مرحبًا بكم ..

مزى يعرف كل شىء ..

مزى يعرف ما عاناه البروفسور باستير فى تلك الأيام السوداء فى مختبره فى شارع أولم .

فكر باستير فى أن يحقن الفيروس الواهن فى كل كلاب فرنسا .. هكذا تصير الكلاب منيعة ضد الفيروس ولا تصيب الإنسان ..

لكن .. تصور أن هناك مئة ألف كلب فى باريس وحدها .. هناك ثلاثة ملايين كلب فى فرنسا كلها .. عليك أن تحقن كل كلب بأربع عشرة حقنة ! ..

من أين تأتى بالرجال ؟

من أين تأتى بالوقت والتمويل ؟

من أين تجد أرانب كافية ؟



كان هذا موجعًا لباستير .. ومن المؤسف أنه كلام دقيق فعلاً .

هكذا راح يفكر .

هنا خطرت له فكرة قوية :

ـ « ماذا لو قمنا بتلقيح البشر بدلاً من الكلاب ؟.. »

سأله رو :

ـ « هل سنلقح البشر كلهم ؟.. »

ـ « كلا يا أحمق .. سنلقح فقط من عضهم كلب .. »

هذا هو مبدأ اللقاح بعد الإصابة وليس قبلها .. من المعروف أنه بعد عضة الكلب يظل الفيروس كامنًا فى مكان العضة نحو ثلاثة أسابيع ، قبل أن يبدأ الزحف للجهاز العصبى ...

بمعنى آخر .. يمكن أن نعطى المريض اللقاح فى هذه الفترة بالضبط .. عندما يبدأ الفيروس الزحف للجهاز العصبى ، يكون المريض قد صار منيعًا ويقضى عليه ..

هكذا بدأت التجارب ..

أدخلوا كلبًا تعسًا إلى أقفاص الكلاب المسعورة .. على الفور مزقت لحمه وعضته . أخرج رو الكلب الجريح وبدأ يحقنه فى مخه بالنخاع الشوكى المجفف للأرانب ..

فى اليوم الأول حقنه بالنخاع الذى جفف أربعة عشر يومًا .. فى اليوم الثانى نخاع ثلاثة عشر يومًا ... وهكذا كما قلنا ..

أنتم لا تفهمون يا أبناء الشمس لكن القراء سيفهمون هذه التفاصيل ..

لقد نال الكلب أربع عشرة حقنة ...

مرت أيام والكلب سليم تمامًا . كرر باستير التجربة وهذه المرة طلب لجنة من الأطباء كى تراقب عمله .. للمرة الأولى فى حياته يعمل بصبر ودقة ، لذا كان هذا كشف عمره .

فحصت اللجنة التجارب ثم أعلنت :



ـ « لو تم تطعيم الكلب بجرعات متزايدة من نخاع الأرانب المصابة بالسعار ، والذى تم تجفيفه ، فلن يقدر المرض على إصابة الكلب .. »

من كل العالم انهالت البرقيات ..

وفى كل الصحف ظهرت الأخبار المثيرة ..

آباء وأمهات يبكون جوار فراش أولادهم الذين عقرتهم كلاب مسعورة ، وجدوا أملاً فى كلمات هذه اللجنة ..

لقد وصله خطاب شخصى من امبراطور البرازيل يتوسل له كى يرسل جرعات من اللقاح !

كان الوقت مبكرًا جدًّا جدًّا على هذا .. ما زلنا فى بداية البداية ..

إن مسئولية حياة هؤلاء الأطفال على كاهله . لو لم يعطهم اللقاح فموتهم أكيد .. ولو أعطاهم اللقاح فموتهم وارد جدًا لأنه لم يجربه على بشر بعد ..

أسوأ موقف واجهه عالم جراثيم فى حياته ..

ـ « لكن كلابى ظلت حية بعد التجربة .. لم يمت كلب واحد .. لابد أن اللقاح يعمل على البشر .. لابد . . . »

هكذا كان يردد وهو يمشى وحده فى الشارع .. رماد السيجار يتساقط منه وهو شارد الذهن .. يراقبه المارة فى دهشة ، ويقولون ما معناه : « جنون العلماء ! » ..

عندما ينام تلاحقه صور أطفال يصرخون .. خائفين من شرب الماء .. خائفين من الهواء .. يتشنجون بفظاعة ..

ماذا أفعل ؟

لكن القدر أعد له خيارًا حل المشكلة وقضى على تردده ..

كانت هذه هى السيدة (مايستر) من الألزاس .. هذه هى السيدة التى قضت على حيرته وتردده ..

جاءته فى مختبره وهى تمسك بيد ابنها جوزيف ذى التسعة أعوام .. وارتمت عند قدمى البروفسور :

ــ « هذا ابنى . ليس لى من أحد سواه ! .. .. »

لقد عضه كلب مسعور فى أربعة عشر موضعًا من جسده .. حدث هذا منذ يومين .. كان الصبى يمشى بصعوبة .. تذكر أن هذا الصبى هو التمثال الذى يراه الزائر اليوم عندما يدخل إلى حديقة معهد باستير ..

ــ « أنقذه يا مسيو باستير !.. »

وانفجرت فى بكاء حار ساخن يمزق نياط القلوب ..

لقد وقع باستير . استسلم وتهاوت حصونه .. لم يستطع أن يلعب الدور البارد المتجرد الذى يمارسه كوخ ...

استدعى باستير مساعديه ليروا الجراح الشنيعة التى مزقت جسد الصبى .. أطلق الرجال صفيرًا غير مصدقين مدى البشاعة ..

وقال فولبيان تلميذ باستير وقد اختلى به :

ــ « احقنه يا بروفسور ... لو لم تفعل فهو ميت مئة بالمئة .. »

كان هذا هو السادس من يوليو 1885 .. أول حقنة من الفيروس الشنيع يتلقاها كائن بشرى ... تلقاها تحت الجلد وليس فى المخ طبعًا ...

يومًا بعد يوم تتزايد الجرعة القاتلة ..

★ ★ ★



الليلة الثالثة عشرة

مرحبًا بكم ..

لم ينتظر علاء كثيرًا حتى يبدأ رحلته .. لقد ترك (بسام) وترك بودرجا كذلك لأن الفولانى اشترطوا هذا . هذا يعنى أنه سيقطع رحلته الرهيبة وحيدًا .. سوف يتفاهم بلغة الإشارات والفرنسية ..

قبل أن يرحل ناوله إبراهيما خنجرًا طويلاً فى غمد جميل ... يمكنك أن تعلقه فى حزامك على الطريقة اليمنية ، وكان علاء يدرك جيدًا أنه لن يجسر على استعماله .. استعمال السلاح الأبيض له الناس المخصصون لذلك . لا يتعلق الأمر بالقوة .. يتعلق بنفسية خاصة قادرة على أن تفعل ذلك ..

أعطوه كذلك زجاجة صغيرة تفوح منها رائحة كيروسين قوية ، ومشط ثقاب .. هؤلاء القوم ليسوا بعيدين عن المدنية جدًا ، لكن ليس إلى درجة منحه مسدسًا ...

ـ « سوف تحتاج إلى أن تشعل النار .. سوف يحل عليك الليل فى القفر !.. »

يحاول تذكرخارطة الكاميرون .. إن الكاميرون تبدو كأنها صورة بروفيل لذئب أو جدى يقعى على مؤخرته ويرفع رأسه ناظرًا للأفق ..

يعرف علاء أنه تقريبًا عند أعلى صدر الجدى .. بينما إنجاوانديرى (إقليم دوالا) أسفل الصدر ...

هو بين بوبا وبولى .. عليه أن يجد نهر فينا ليمشى على ضفته ..

عانق علاء صديقه بسام وعانق بودرجا الذى بدا متأثرًا جدًا ، ثم ألقى نظرة على مريضه (مامادو) الغارق فى غيبوبة صناعية ..

الأمور مستقرة نوعًا ...

قال له بسام فى خبث :



ــ « هل تعرف ؟.. سوف أواصل مهمتنا الأصلية الخاصة بالملاريا .. تعرف أننا توقفنا تمامًا منذ يومين .. وتعرف ما سيفعله باركر بنا .. سوف يعد لنا المشانق .. »

ــ « فليذهب للجحيم .. لست رائق البال لأهتم بما يفكر فيه .. »

عانقه الزعيم (بو باكار بيلو) و(إبراهيما) ... وتمنيا له التوفيق ... تمنى لو استطاع أن يطلب مرافقًا له من رجال الفولانى ، لكنهم لم يعرضوا .. وأدرك أن رحلته ستكون قاسية فعلاً ..

مشى معه إبراهيما خارج أسوار القرية ، وأشار إلى الدغل .. هناك طريق بين الأشجار يمكن أن تقطعه فى ساعتين ، وبعدها تصل للوادى ..

منذ تلك النقطة سيكون على علاء أن يجد الاتجاه الصحيح وأن يبحث عن نهر فينا ...

عند أول الدغل عانقه إبراهيما من جديد وقال له بالعربية :

ــ « السلام عليكم .. »

بدأ علاء يشق طريقه فى الدغل ...

لحسن الحظ أن هذا هو الصباح .. من المستحيل أن تفعل هذا ليلاً ..

لا توجد حيوانات هنا .. هو متأكد من هذا حسب ما قاله إبراهيما .. لكن من الوارد أن تقابل ثعبانًا .. أو ذئبًا !!

ارتجف للفكرة الأخيرة وتجمد الدم فى عروقه .. تحسس الخنجر فى خصره وواصل السير ..

★ ★ ★

كان يحاول تذكر الجرعات ..

اللقاح الحالى ضد داء الكلب يختلف تمامًا عن لقاح باستير القديم .. هذه ثمار قرن من التطور الطبى والهندسة الجزيئية .. اللقاح الحالى يدعى HDCV وربما أمكنك أن تترجمه بـ (لقاح الخلايا البشرية المضاعفة) .. ست جرعات تحت الجلد فى أيام معلومات ..

لم يعد هناك ذلك اللقاح القديم ذو السمعة الـسيئة .. واحـد وعشرون حقنة فى البطن ! .. أى ! ... قد يفضل المرء الموت على تجربة هذا ، برغم أن اللقاح يعطى تحت الجلد فى منطقـة البطن وليس فى البطن نفسها .. لكنه رأى الألم الذى يحدثـه ، والكدمات الناجمة عنه ..

صار الأمر أكثر سهولة .. المهم أن تجـده وأن تعطيـه فـى الوقت المناسب ..

يحاول علاء أن يسرع ..

هذه الأشجار تسبب له توترًا .. يمكن أن يقفز فوقه أسد مـن أى شجرة .. أو يتلوى حوله ثعبان .. يعرف أنه لا وجود لهـذا هنا ، لكن الدغل يجعلك هشًا بشكل لا يصدق .. لابد من مساحة خالية حولك تمنحك القدرة على أن تدرك الخطر ..

برنادت .. ماذا تعملين الآن ؟

وماذا عن سارة ؟

ماذا عن أسرتى فى مصر ؟ ...

هل يدركون أنه الآن فى دغل بغرب أفريقيا يحاول أن يجلـب لقاح الكلب لصديقه ؟.. يا للسخرية !

كان جائعًا فهو لم يأكل شيئًا منذ ليلة أمس ، لكنه قرر ألا يكافئ نفسه إلا بعد اجتياز الدغل .. هذا هو الثواب الذى ينتظره ...

هه .. هه .. أسرع قليلاً ..

ثم سمع العواء ..

ووووووووووووووووووووووووووووووه !

الصوت المميز للوحشة لو كان لها صـوت .. عميقًـا كئيبًـا حزينًا منذرًا بالشؤم ...

توقف للحظة وتجمد الدم فى عروقه .. ثم واصل السير ..

من جديد تكرر العواء .. من الواضح أنه أقرب . هذه المـرة تصحبه زمجرة خفيضة مخيفة .. تذكر المشهد الافتتاحى فى فيلم (مذعوب أمريكى فى لندن) ... كان يخيفه كثيرًا وكان نـسخة من هذا الموقف ، فيما عدا أنه كان يحدث ليلاً ..

المذءوبون لا يظهرون صباحًا ... هكذا قال لنفسه . إن أفلام الرعب تقدم لك خبرات ممتازة ...

المذءوبون لا يظهرون صباحًا ... لكن الذئاب الحقيقية تظهر كما هو واضح !

★ ★ ★

فى نفس الوقت تقريبا هرع إبراهيما وبعض من رفاقه إلى حيث كان بسام يغفو فى الظل جوار الكوخ ..

إنه وقت العصر حيث الخمول هو القاعدة ..

كانت وجوههم تدل على الخبر ، وقد تحامل بسام لينهض ثم ركض خلفهم إلى الكوخ الموجود فى مركز القرية ..

كان هذا بالضبط هو وقت العصر .. أذان العصر يدوى من المسجد الطينى الصغير ..

وعندما دخل إلى الكوخ وجد بودرجا على الأرض جاثيًا على ركبتيه ، وهو يصفع الفتى مامادو على خده فى رفق .. يحاول فتح عين الفتى وتفحص جفنه ..

المحاقن متناثرة من حوله ، ويبدو أنه لم يتلق جرعته الأخيرة بعد .. عبير الموت الغامض يملأ هواء الكوخ . نعم عبير .. منفر كريه لكن كذلك فيه نوع من الشجن الساحر ..

كان من الواضح أنه قد لفظ أنفاسه الأخيرة ..

لقد فشل علاج ميلووكى مرة أخرى ..

صحيح أنه منحهم بعض الأمل لبعض الوقت ، والأهم أنه جعل الفتى يموت ميتة هادئة كريمة ، لكنه فشل كما توقع علاء ..

جثت فطوماطا والقهرمانات على الأرض ورحن يحثين الغبار على الرءوس وهن يصرخن بطريقة موسيقية غريبة ، ومن مكان ما تردد نشيد جنائزى باللغة المحلية لا تعرف معناه لكن بوسعك أن تتخيله ..

بسام راح يرقب الجثة الهامدة فى صمت ..

لو لم تسر الأمور كما ينبغى فلسوف يكون هو مثلها بعد أيام ..



أشعر أن اهتمامكم بدأ ينحسر ، وأنكم تراقبون الشعلة المتراقصة أكثر مما تراقبون وجهى ، لذا أوثر أن أنهى الكلام هذه الليلة وغدًا نكمل قصتنا ..

★ ★ ★

الليلة الرابعة عشرة

مرحبًا بكم ..

بعد 14 يومًا انتهت الحقن ، وعاد الصبى جوزيف إلى الألزاس مع أمه سليمًا تمامًا ..

لقد اندحر للمرض .. للمرة الأولى فى التاريخ يقهر أحدهم المرض اللعين ..

لقد صار باستير قادرًا على منع السعار قبل أن يحدث .. وقد زالت كل شكوكه .

ومن كل مكان فى العالم جاء المعذبون الذين ينتظرون الموت .. كلهم يحاصرون المختبر مرددين :

ـ « أنقذنا !.. »

هكذا ظل ساهرًا فى المختبر مع رو وتشامبرلين ، منهمكًا فى إصابة الأرانب بالسعار ثم تجفيف أحبالها الشوكية ، وإفراغ الحقن تحت جلد القادمين ..

ومن سمولنسك فى سيبريا جاء وفد غريب ..

تسعة عشر فلاحًا روسيًا هاجمهم ذئب مسعور منذ 20 يومًا ..
يمشون فى شوارع باريس وهم يلبسون الفراء والقلنسوات الصوفية كأنهم دببة روسية ضخمة ..

جاءوا وهم لا يعرفون من الفرنسية سوى كلمة واحدة :

ـ « بـ ... ا ... س .. ت ... ى ... ر !.. »

يلتفون حول المختبر .. ينظرون من النوافذ ليراقبوا ما يقوم به هذا القديس ...

ـ « بـ ... ا ... س .. ت ... ى ... ر !.. »

لقد انتهى أمر هؤلاء الروس على الأرجح ..

إن عشرين يومًا فترة طويلة جدًا .. لابد أن الفرصة صفر .. ذئب مسعور ؟.. مستحيل أن ينجوا ..

لم ينم باستير ولم يستطع أن يأكل ..

كان فى روحه جزء من شاعر مرهف الحس وجزء من فنان .
أراد أن ينقذ هؤلاء بأى ثمن ..

قرر أن يحقنهم حقنتين كل يوم لينهى الجرعات خلال أسبوع ، محاولاً تقصير الفترة ..

ظل ينتظر فى توتر ..

هنا كانت المفاجأة الحقيقية ..

لقد نجح اللقاح برغم كل الظروف المعادية وأنقذ حياة ستة عشر فلاحًا بينما مات ثلاثة .. ثلاثة كان الذئب قد مزقهم بشراسة ..

عاد الروس لوطنهم فاستقبلوا كالأبطال .. وصار باستير قديسًا فى عيون الروس ..

قام قيصر الروس بإهداء صليب القديسة آن الماسى ومئة ألف فرانك لباستير . هذه هى النواة التى بنى بها باستير المعهد الشهير الذى يحمل اسمه .

من كل مكان فى العالم جاءت التبرعات ..

لقد صار لدى باستير كل ما يريد كى يبحث عن مزيد من الفيروسات والميكروبات .

وكانت هذه هى اللحظة التى انهار فيها الرجل بعد أربعين عامًا من العمل المتواصل .. وتوفى عام 1895 .

لم يحدث هذا إلا بعد ما تم تكريمه فى السوربون ..

كل علماء فرنسا كانوا هناك .. الجراح البريطانى العظيم لستر كان هناك .. كل عالم استفاد من بحوث الرجل عن الميكروبات كان هناك ..

وعندما ظهر الشيخ الذى بلغ السبعين يمشى فى وهن ، متوكئًا على ذراع رئيس جمهورية فرنسا ، ضجت القاعة بالتصفيق ونهض الجميع ..

وتقدم لستر البريطانى العظيم ليعانقه ..

بصوته الواهن قال باستير للحضور :

ـ « لا تتركوا الشكوك والسخرية تعوق طريقكم ... لا تتركوا الخلافات والتوترات تفسد سلامكم النفسى .. اطلبوا السلام بين جدران المختبرات .. وليسأل كل نفسه فى كل يوم : ماذا قدمت لأمتى ؟ وبعد أعوام سوف يسأل نفسه : ماذا قدمت للبشرية ؟.. »

★ ★ ★

لابد أن هذه الذكريات جالت فى عقل علاء وهو ماضٍ فى رحلته الرهيبة عبر الدغل ..

كان يجد السير ..

ينظر من حوله وعند قدميه .. إنه واهن فعلاً . مكشوف بشدة . يمكن لأى شىء أن يخرج من الدغل فى أى لحظة .. نمر ؟ لا توجد نمور فى أفريقيا ..

سمع صوت حفيف الأشجار فنظر للخلف ..

رأى الذئب قادمًا .. منتفش الشعر حول العنق ، رائع الجمال لكنه مفزع . مع هاتين العينين الباردتين القاسيتين .. سوف يفترسه ويحتفظ بجماله أو يصير أجمل .. يمكن لهذا الشىء الساحر أن يمحو علاء من الوجود ..

أطلق علاء صرخة . . .

المشكلة ليست فى النجاة بحياتك .. يمكن أن تقاوم هذا الشىء ، فهو بحجم كلب متوسط الحجم ، لكن المشكلة هى أنه على الأرجح يحمل بين أنيابه الموت .. يحمل فى لعابه رائحة القبر ..

استدار علاء وكشر عن أنيابه فى عصبية بالغة .. وزأر .. فعلاً زأر ..

ثم مد يده لنطاقه يخرج الخنجر الذى أعطاه إياه إبراهيما ..

طوح به فى الهواء مرارًا كأنه يهدد هذا الوحش ...

يتذكر الليلة التى عاد فيها من السينما متأخرًا فى شارع مقفر ، عندما وجد ثلاثة كلاب تقطع عليه الطريق ، وهى تخور بتلك الطريقة التى تنذر بدنو الانقضاض .. تراجع للخلف ووجد نفسه يقول :

ـ « مساء الخير !.. »

للكلاب .. وكأنه يطلب منها الإذن بالمرور ..

حرب نظرات قصيرة بين الوحش وعلاء .. يمكنه أن يرى اللعاب يسيل من هذا الفم الشرس ، ثم بعد دقيقة قرر الذئب أن يتراجع .. على الأرجح أدرك أنه سينال طعنة أو طعنتين قد تكونان قاتلتين ..

تنهد علاء الصعداء ..

ترى هل هذا الذئب وحيد ؟.. الذئاب حيوانات اجتماعية لا تعيش وحيدة إلا فيما ندر . تعبير ذئب وحيد لم يسمع عنه إلا فى الأدب وفى أسماء زعماء الهنود الحمر مثل (لون وولف) ...

أين الآخرون ؟

لا سبيل لمعرفة ذلك .. لا حل سوى التقدم ...

هكذا واصل السير والخنجر فى يده ..

★ ★ ★

أخيرًا خرج من الدغل ..

تنهد الصعداء برغم أن المساحة الشاسعة أمامه كانت مسطحة تمامًا .. لو هوجم هنا فلن تكون أمامه فرصة للتوارى أو حماية ظهره ..

النهر .. لو وجد النهر لعرف أنه فى الطريق الصحيح ...

سمع صوت العواء من جديد .. ..

هذه المرة لم يتردد أكثر .. أطلق ساقيه للريح بسرعة البرق .. يجب أن يجد مكانًا ما .. جدارًا ما .. شجرة ما ، قبل

أن يجد الذئاب من خلفه ... ذئاب أصابت بعضها بالسعار ... لو لم تقتله فهى سوف تحقنه بالكلب ...

انطلق يجرى وهو ينظر للخلف ...

الشمس تنحدر نحو الغرب .. والهواء يتلون بلون قرمزى يثير القشعريرة ..

هناك مجموعة من الأشجار عند الأفق . ربما لو بلغها لالتقط أنفاسه ..

أخيرًا وصل إلى الأشجار فجلس مسندًا ظهره لشجرة وراح يعب الهواء فى جشع ... شرب جرعات من الماء وتبلغ ببعض الماء ، ثم راح يجرى حسابات سريعة وقد عرف أين يقع الغرب .. أنت تمشى فى الاتجاه الصحيح غالبًا ...

لو بلغت النهر فلسوف يصير الأمر سهلاً .. دعك من أنك ستجد حياة .. الأنهار تحمل حولها الحياة دومًا . جمع بعض

الأغصان ثم سكب عليها القليل من الكيروسين وأشعل الثقاب .. نار ...

النار .. الزهرة الحمراء التى تحمل معها الدفء والاطمئنان .. أنت ترى ما حولك .. أنت تملك حماية .. الحيوانات لن تتخلى عن خوفها من النار حتى تقوم الساعة .. كانت كذلك منذ بدء الخليقة وستظل كذلك ...

جلس علاء وأراح ظهره لشجرة . تبًّا ! .. الليل ما زال طفلاً وما زال أمامه وقت طويل مرهق ... الوقت لا يمر أبدًا فى ظروف كهذه ..

ليس معه كتاب ولا شىء يقرأ فيه ليزجى الوقت . لا شىء يفعله سوى فتح كتاب الذكريات والمطالعة فيه . كل واحد فينا يحمل كتابًا دائمًا فى عقله .. كتابًا مصورًا ومزدانًا بالقصص ...

هكذا راح يطالع الكتاب .. يبتسم .. يكلم أشخاصًا لا وجود لهم ...

مرت ساعات ...

ثم فتح عينه وقد سمع صوت الزمجرة ..

رفع عينيه ببطء فرأى فى دائرة اللهب ذئبين يقفان فى وضع تحفز . ويقفان على بعد عشرة أمتار . الذئاب حيوانات اجتماعية .. حقيقة لا تخيب أبدًا ...

تناول غصن شجرة مشتعلاً ولوَّح به ..

من السهل أن تنجو من القتل .. لكن من المستحيل تقريبًا أن تنجو من عضة أو خدش ....

★ ★ ★



الليلة الخامسة عشرة

مرحبًا بكم ..

إبراهيما كان أول من تكلم ..

عندما انتهت طقوس الدفن ، وعندما قرءوا القرآن على القبر الذى توارى فيه جسد (مامادو) ، كان الزعيم غير قادر على الكلام . ابتعد مطرقًا مع رفيقه (توجار شاجارى) .

وقف بسام كاسف البال يرمق التراب المبتل ، ويفكر فى المصير الذى ينتظره لو لم يعد علاء ..

ربما لا .. ربما لم يكن الذئب مسعورًا .. ربما كانت هذه مجرد جراح سطحية سوف تبرأ مع الوقت .. لكنه كذلك يدرك فى جزء من يقينه أن الذئب مسعور . هذه طبائع الأمور ..

لو ظهرت أى أعراض فلسوف يدرك أنها النهاية ..

حاليًا هو محموم والعرق يبلل جبينه ، لكنه يتوقع هذا بسبب الجرح نفسه .. ليس هذا دليلاً على شىء ..

علاج ميلووكى ؟ التجربة الوحيدة كانت فاشلة .. ومن المؤكد أنه لن يصلح معه ..

هناك فى ضوء المشاعل الراقص والدخان الذى يؤذى عينيك اقترب إبراهيما من بسام ، وقال له فى صلابة بعض كلمات لم يفهمها إلا عن طريق بودرجا ..

قال له :

ـ « يجب أن ترحل من هنا !.. »

نظر بسام له فى عدم فهم ، لكن إبراهيما كان ثابتًا .. لا ترى فمه لأنه ملثم لكن بوسعك أن ترى التصميم والقسوة فى عينيه . يقول بصوت مكتوم من وراء اللثام :

ـ « يجب أن ترحل من هنا عند الصباح .. »

تردد بودرجا فى الترجمة وجال بين الوجهين بعينيه الواسعتين الشبيهتين بعينى ضفدع ، ثم نقل ما قيل بأمانة .. ..

أشعل بسام لفافة تبغ ويده ترتجف وعاد يسأل :

ـ « ولماذا ؟.. »



جاءت الإجابة من إبراهيما وهو يقف على ساق واحدة ويدفن بطن القدم الأخرى فى ساقه التى يقف عليها :

ـ « نحن نخاف على أفراد القرية . وعلى أطفالنا .. لـو أن (جنون الكلاب) انتقل لك فمن الوارد أن تؤذى واحدًا منا .. »

وهو كلام لا يخلو من صحة ..

المصاب بالسعار لا يجرى على أربع وهو ينبح ويعض الناس ، لكن هذا لا ينفى أن لعابه وإفرازاته خطرة . وبالتأكيـد ليـست عضته مأمونة على الإطلاق ..

ـ « ولكنك سمحت لى بالبقاء .. تعرف أننى غير قادر علـى الرحيل .. »

قال إبراهيما بلهجة قاطعة :

ـ « كان هذا قبل وفاة أخى .. لا نريد المزيد من الموتى هنا . اللعنة أصابت أخى وقتلته .. الآن جاءتك اللعنة فلن ننتظر حتـى تنتقل لواحد آخر . لقد تألمت القرية بما يكفى .. »

كان من الواضح أنه لا جدوى من استعطافه .. لا جدوى مـن الإلحاح ، فهـو اتخذ قراره فعـلاً . وكـان بسام يعرف أن تلك الرحلة هى نهايته على الأرجح ... إنه منهك محموم .. سـوف تؤدى الرحلة إلى نقص مناعته ، ولسوف يجد الفيـروس ألـف ذراع ترحب به وألف صدر يضمه ..

وهل يمكنه أن يجد الطريق ؟.. من الصعب على علاء السليم نفسه أن يجده فكيف يجده هو ؟

ـ « إذن اسمح لى بالبقاء حتى الصباح .. »

قال إبراهيما بينما القبعة تخفى عينيه :

ـ « هذا مطلب عادل .. سوف تبيت ليلتـك وفـى الـصباح تزودك نساؤنا بالمؤن والشراب .. وسوف يكـون الكـاميرونى معك ... إنه خير عون لك فالبلد بلده .. »

عاد بسام إلى كوخه فبلل رأسه وشعره من دن المـاء هنـاك ثم رقد فى الظلام .. الأفكار تحاصره .. وفى كل لحظـة ينهض مذعورًا شاعرًا بأن الهلاوس تستولى عليـه .. لا هلاوس !..

لو هلوس فمعنى هذا أن التهاب الدماغ قد بدأ .. معناه أن الرصاصة الفيروسية انطلقت ..

فيروس السعار يشبه الرصاصة فعلاً .. أهى رسالة إلهية تخبرنا بالحقيقة ؟

لا يمكن الفرار .. لا يمكن الفرار ...

فى الظلام همس لبودرجا :

ـ « بودرجا .. يجب أن نصر على عدم الرحيل .. »

قال بودرجا بين شفتيه الغليظتين ، وهو يلوك شيئًا ما :

ـ « هل معك لفافة تبغ يا دكتور ؟.. »

يا لك من سخيف .. قال له بسام أن يأخذ واحدة من جيب السروال . تناول بودرجا واحدة وأشعلها باستمتاع ونفث سحابة كثيفة ثم قال :

ـ « هم مصرون .. يخافونك فعلاً ... قد يصل الأمر إلى الفتك بك .. لا مزاح يا دكتور .. يشعرون أنك السعار نفسه .. »

هزَّ بسام رأسه وراح يراقب خيوط الدخان .. أنا السعار ذاته ؟.. السعار يمشى على قدمين ويتكلم العربية ...

سوف يتحرك فى الصباح ، ولتكونن هذه نهايته ..

★ ★ ★

هوى علاء على الذئب الأول بالغصن المشتعل فأطلق صرخة رفيعة وجرى يتوارى فى الدغل ..

ظل الذئب الآخر فى وضع تحفز ، وهو يكشر عن أنيابه الأمامية بتلك الطريقة المتهددة التى تجيدها الكلاب ...

ـ « يا بن الشيطان !.. »

قالها علاء بالفرنسية ولوح بالغصن المشتعل ، لكن المخلوق الشرس تملص وتفادى الهجمات ، لكن بدا أنه لن يبتعد ...

هذه المرة قرر علاء أن يشتم بالعربية .. تأثيرها قوى وفعال .. وبدأ يوجه شتائم بذيئة جدًّا للذئب .. الذئب الذى بدا كأن خيوطًا غير مرئية تثبته لهذا المكان ...

مد علاء يده للنطاق وأخرج الخنجر وصوبه نحو الذئب .

للأسف فى ذات اللحظة التى وثب فيها الذئب عليه . هكذا استقر الخنجر فى بطن الشىء وسقط أرضًا .. كان ينزف بغزارة وهو يصدر عواء يمزق القلوب ... يضرب بقدميه ويديه ويحاول أن يعتدل ..

لم يتحمل علاء المزيد فهوى بالخنجر يمزق العنق المكسو بالفراء ... الوحش يتشحط فى دمه ..

إنه قتل . لكنه قتل ضرورى جدًا .. هذا الوحش يجب ألا يتعذب أكثر من هذا ... لو هرب وأمعاؤه تتدلى من بطنه فلن يغفر علاء لنفسه أبدًا ..

القتل الرحيم ... . هذا هو ما يريده علاء ..

مشمئزًا متوجسًا مد علاء يده فقبض على القدمين المخلبيتين اللتين ترتجفان ، فجر الجثة بعيدًا بكثير من الجهد .. ثم عاد وهو ينتفض من الصدمة العصبية ليجلس وظهره للشجرة ..

لن يتركها ولن يبتعد عن النار أو يجازف بالبقاء فى العراء ..

هكذا جلس حيث هو يراقب النار المتراقصة ... يعد الدقائق والثوانى ..

وللحظات غاب فى عوالم النوم لكنه كان ينهض مذعورًا على الفور ... لو نام تمامًا فلربما لن يصحو أبدًا .. أو سيصحو وأنياب ذئب تطبق على عنقه ...

أخيرًا بدأ يرى خيوط الفجر .. وصار الجو باردًا ..

شعر براحة نسبية .. من الأفضل أن تموت وأنت ترى من أن تموت أعمى يتحسس طريقه ..

هل ترون ضوء الفجر ؟ ... إذن لقد أطلت عليكم جدًا هذه الليلة ..

غدًا يكمل مزى القصة يا أبناء الشمس ..

* * *

الليلة السادسة عشرة

مرحبًا بكم ..

بدأ علاء التحرك مبكرًا ..

كان قد أجرى حسابات معقدة عرف منها الاتجاه بالتقريب ، وكان يخشى الخطأ .. اعتاد فى المدرسة أن يجرى حسابات يثق فـى دقتها ثم يكتشف أن الأساس ذاته خطأ .. هذا يهدم كل شىء ..

بدأ يجد السير وهو ينظر للخلف إلى حيث رماد النار ، وحيث جثة الذئب ..

مشى بعض الوقت وهو يشعر بأن ساقيه واهنتان ..

لسبب ما تذكر رحلته فى صحراء كلهارى فى جنوب أفريقيا ، عندما كان يغنى : كان فيه فراشة مخططة ... ستا كـالافريزللا موريرى مى فا ..

مشى بهذه الطريقة من قبل ، لكنه كان يقتفى أثر محارب من محاربى البوشمن .. البوشمن الذين لا يضلون طريقهم أبدًا ...

هناك أشجار هنا .. ليست صحراء ..

الجـو كذلك لم يشتعل بالحـر بعـد .. ما زال هواء رطيبًـا حنونًا ..

قال لنفسه إنه سوف ينجو .. سوف يفعلها ..

ما هذه المساحات الخاوية ؟؟ أين ذهب البشر جميعًا ؟..

جلس على الأرض المغبرة وأخرج بعض الطعام والفاكهـة . كان يمقت وجبة الإفطار ويشعر أنها عبء على معدتـه ، لكنـه كان بحاجة للاحتفاظ بقواه ..

ثم إنه نهض من جديد وواصل الرحلة ..

هنا سمع العواء من جديد ..

استدار ليرى ... هنا رأى ثلاثة ذئاب تجرى نحـوه بطريقـة (التقريب) الشهيرة ، وقد بدا واضحًا أنها لن تتراجع . لو كان لهذه الوحوش عقـل لحسبها جاءت لتنتقـم لأخيها الـذى مات أمس ..

لا جدوى من الهرب ..

سوف يتلقى عضة فى سمانة رجله أو مؤخرته ..

يجب أن يتراجع ويحمى ظهره بشجرة ويثبت عينه عليها . لم يكن قد سمع أن الذئاب تهاجم فى النهار لكن من الواضح أنهـا حقيقة علمية ...

اقتربت الوحوش أكثر وهى تعوى كالكلاب .. لم يسمع من قبل أن الذئاب تنبح .. حقيقة علمية أخرى ...

هـذه المـرة أدرك أنه لن ينجـو ما لم يتخـذ تدابير أكثـر شراسة ..

مدَّ يده والتقط زجاجة الكيروسين ... وبحركة سريعة طـوح محتوياتها لتبلل الذئاب بقطرات متناثرة ...

صرخت الذئاب وتراجعت ثم عادت تتقدم نحوه ..

ــ « لقد أعذر من أنذر !.. »

قالها وهـو يمـد يده بحثًا عـن الثقـاب .. أين هو ؟.. هل ضاع ؟

هاهو ذا .. هكذا أخرج المشط ووجد بعض الأوراق .. أوراق الملاريا الخاصة بباركر .. تبًا لباركر !!! أشعل عود الثقاب وكوم الأوراق كأنها مشعل ، ثم أضرم النار فيها ..

ــ « تراجعن يا سافلات !.. »

قالها للذئاب وهو يلوح باللهب ..

دنا منه أول ذئب فطوح علاء باللهب فـى وجهـه ، عنـدها ركض الذئب وهو يصرخ وقد تمسكت النار بفراء عنقه .. نـار زرقاء تتزايد ..

ذئب آخر هاجم فتكرر معه ما حدث للآخر ...

ذئاب بلا أجهزة إطفاء أو أيد تطفئ بها النار .. ليست لـديها أى فرصة .. لا تقدر إلا على أن تمرغ أنفسها فى التراب .. لكن هذا كان متأخرًا جدًا ..

ركضت وهى تعوى عواء يمزق القلوب مبتعدة ، ولحق الذئب الثالث بأخويه ..

كل هذا العنف لم يكن ضروريًا .. لكن الفعل يستوجب رد فعل . لا تستطيع أن تكون رحيمًا مهذبًا مع وحش يريد أن يلتهمك ..

انتظر علاء بعض الوقت ثم واصل التحرك ..

لو عادت الذئاب هذه المرة ، فقد فرغ معظم الكيروسين من الزجاجة ..

* * *

بسام هو الآخر غادر القرية مع بودرجا ، شاعرًا بأنه منبوذ مطرود .. لا يستطيع أن يلومهم على ما فعلوا ، لكنه كذلك لا يشكرهم عليه .. ربما كان بوسعهم انتظار عودة علاء ...

كان عليه وبودرجا أن يعبرا الدغل .. لكنه وجد نفسه عاجزًا عن ذلك .. قال لبودرجا إنهما سيحاولان أن يلتفا من حوله ..

هتف بودرجا فى جزع :

ـ « هذا يطيل الرحلة جدًا دكتور .. »

ـ « لا يوجد حل آخر .. لو دخلت الدغل فلن أخرج منه .. »

وهكذا صمت بودرجا وبدأ الرجلان يمشيان بمحاذاة الأشجار نحو اليمين .. عكس عقارب الساعة لو شئت الدقة .. نظر للخلف فرأى رجال القرية واقفين على بابها يتأكدون من رحيله . لوح لهم بذراعه مودعًا .. برغم كل شىء تصرفوا برقى وضيافة ...

مسيرة بطيئة جدًا هى ...

استغرقا وقتًا لا بأس به حتى ابتعدا عن عيون الرجال ... يمشيان بمحاذاة الأشجار . سوف يضلان الطريق .. لا شك فى هذا ...

بعد ساعة من السير فوجئ بسام برجل ملثم من الفولانى يركض قادمًا نحوهما .. كأنه خرج من بين أشجار الدغل . أوقف بودرجا بإشارة من يده ووقف ينتظر .

ماذا هنالك ؟ .. هل سيقتلونه هنا على سبيل الحجر الصحى ؟

دنا الملثم أكثر فأكثر ثم توقف وقد بدا عليه الإرهاق ...

نزع النقاب عن وجهه عندها رأى بسام وجه فطوماطا الجميل الذى اكتسى حزنًا ولوعة . تبادلا النظرات ، وللحظة شعر بأنه موشك على البكاء .. لم تستطع تركه يرحل دون وداع ..

قالت له بخليط من الفرنسية والعربية وترجمة بودرجا :

ـ « هناك أشياء يجب أن تعرفها .. لا أستطيع جعلك ترحل دون أن تعرف .. »

ورأى عينيها فقال لنفسه : هذه الفتاة تحبنى .. أقسم بالله أنها تحبنى برغم حاجز الثقافة واللغة ..

تعالى يا فطوماطا الحسناء واحكى لى ...

★ ★ ★

النهر !

رأى علاء النهر من بعيد فجرى نحوه غير مصدق ..

نهر فينا الذى يتجه حتمًا نحو إنجاوانديرى ...

سوف يتبعه وسوف يقوده إلى أقرب طريق ممكن ...

راح يجرى غير مصدق ، واستطاع أن يرى بعض القرى ومعالم الحياة من قريب .. لقد نجا أخيرًا .. بسام سينجو ...

الأعشاب الطويلة فى كل مكان هى أعشاب سافانا ... أعشاب السافانا مقلقة لأن أى شىء يمكن أن يتوارى فيها حتى جيش هتلر نفسه .. سوف تجد ضبعًا يطاردك فى أى لحظة ..

غسل وجهه وقدميه فى الماء الرقراق .. هل كانت هناك بلهارسيا هنا ؟.. لا يذكر .. سوف يتذكر هذا فيما بعد ، أما اليوم فالموت فقط يمكن أن يمنعه من أن يرطب نفسه ..

ارتدى الحذاء ومشى على الشط وهو يدندن .. أكسبه الماء حيوية جديدة واستعدادًا للصراع .. هذا إقليم سافانا بلا شك ...

لكن منظر الأشجار غريب هنا ..

إنها جميلة منسقة وذات طابع غير معتاد .. لا يمكن أن تكون هذه يد الطبيعة فقط .. مساحات من الأشجار تمتد على ضفة النهر ، ويذكرك تنسيقها بحديقة النباتات فى أسوان ..

ثم زال أى شك لديه عندما رأى لافتة مثبتة إلى شجرة .. كتب عليها جمنوستيمون زايزو Gymnostemon zaizou .. الطبيعة لا تكتب على الأشجار أسماءها حسب قواعد الخواجة لينيوس فى التقسيم .

هذه محمية .. لا شك فى هذا .. محمية نباتات على الأرجح ، ما لم تكن محمية وحوش مثل محميات كينيا وهذا معناه أنه سيقابل أسرة أسود حالاً ... سيكون هذا مسليًا ..

لكنه رأى السيارة (الجيب) قادمة من بعيد فتنفس الصعداء ...

هناك أفارقة فى السيارة يلبسون كالمستكشفين . القبعات والشورت .. غالبًا هم حراس المحمية . وقف يلوح بذراعيه كى يتوقفوا .. بالفعل توقفت السيارة بقربه وترجل منها رجل بدين واضح السلطة ...

دنا من علاء فسأله الأخير بالفرنسية وهو يرتجف وهنًا :

ــ « هل هذا نهر فينا ؟.. »

قال الرجل :

ــ « بل هو نهر بينويه ... .. »

ارتجف علاء من فرط الإرهاق .. لقد ضل طريقه فعلاً .. نهر بينويه ليس فى مسار رحلته أصلاً . لكنه قد وجد بشرًا على الأقل ...

قال الرجل وهو يرمق علاء فى شك :

ــ « هذه حديقة بينويه القومية Bénoué National Park . إنها محمية للنباتات .. »

كان علاء يعرف هذه المحمية طبعًا لكنه ظل يحسبها بعيدة عن مسار رحلته .. لقد أعلنتها اليونسكو محمية نباتات طبيعية منذ عام 1932 ..

نزع الرجل قبعته وجفف العرق وقال :

ــ « إن الطريق هنا يتجه شمالاً نحو جارونا .. ويتجه جنوبًا نحو إنجاوانديرى .. »

إنجاوانديرى !!

إنجاوانديرى قريبة وإلى الجنوب !... لقد ضللت الطريق لكن هذا جعلك تقترب أكثر ..

قال علاء فى وهن :

ـ « أنا طبيب فى وحـدة سافارى .. كنــت فى قرية فولانى اسمها (ألفا أومار) .. أريد من يساعدنى للوصول إلى وحدتى . هناك حالة طارئة .. »

تبادل الرجال النظرات ثم قال الرجل البدين :

ـ « اركب معنا .. سوف نجد من يوصلك .. »

كان أول سؤال وجهه علاء عندما ركب السيارة هو :

ـ « هل يمكننى استعمال هاتف أحدكم ؟.. »

★ ★ ★

هبطت طائرة الهليوكوبتر التى تحمل شعار الرأس الأفريقــى خارج نطاق الأشجار .. راحت الأشجار تتطاير وتميل من فــرط تيارات الدفع ..

هناك كان بسام جالسًا وقد أراح رأسه إلى صدر فطوماطا التى تتخلل شعره بأناملها وتضع كمادات مبتلة على جبينــه ، بينمـا وقف بودرجا يأتى بإشارات مضحكة للهليوكوبتر كعادته .. كأنها سوف تسقط ما لم يفعل ذلك ..

عندما ترجل علاء من الطائرة ، راح يركض مبتعـدًا منحنــى القامة وهو يقول لنفسه (ده حب بأه !)

كانوا قد عادوا للقرية فأخبرهم الأهالى أنهم طردوا بسام وأنه مضى محاذيًا لنطاق الأشجار حول الدغل ..

لم يستغرق الأمر التحليق طويلاً حتى وجدوه ومعــه الفتــاة وبودرجا ..

عندما رأى بسام وجه علاء ، عانقه فى حرارة . كان غارقًـا فى العرق ...

قال له :

ــ « الذئب برىء من دم ابن يعقوب .. أعنى أنه لـيس مـن سبب المرض ... .. »

ــ « من قال لك هذا ؟.. »

ــ « فطوماطا ... كانت تعرف الحقيقة منذ البداية .. أخوهـا يعرف .. لكنه خاف من عضة الذئب التى نلتها أنا .. لم يستطع أن يستبعد أن أصاب أنا كذلك بالسعار .. »

نظر علاء لوجهه وحك رأسه فى حيرة :

ــ « ماذا عن مامادو ؟.. »

ــ « مامادو مات ! ... هل كنت تتوقع شيئًا آخر ؟.. »

ــ « والعدوى أصابته من ..؟.. أليس ذئبًا ؟.. »

ابتسم ونظر له وقال :

ــ « بل من أخيـه الذى لم نـره قط ! ... الأخ أصيب بالداء أولاً ... كان مامادو نائمًا جوار أخيه السقيم ، عندما انقض عليه

أخوه ومزقه بأسنانه .. ثم مات هذا الأخ بعد أيام ودفن ... جاء دور مامادو بعد أيام ... .. »

قال علاء وقد بدأ يفهم :

ــ « إذن تكتم الجميع هذه القصة فرارًا من العار .. لن يقـال إن ولدى الزعيم أصـيبا بالسـعار .. لكن لا أفهم لمـاذا أصـر إبراهيما على طردك إذن ؟ ولماذا تركنى أقوم بهذه الرحلة ؟.. »

ــ « لأنه لا يضمن .. لا يعرف من أين أصابت العدوى أخـاه الأول .. ماذا لو كان الفاعل ذئبًا ؟.. »

نظر علاء إلى فطوماطا .. كانت تنظر بدورها دامعة العينـين إلى بسام ...

لقد حانت لحظة الرحيل .. لن يكون بوسعها أن تركب الطائرة معه ..

ساعدوه على الركوب وتسلق بودرجا .. راحت المروحة تدور هادرة ... وارتفعت الطائرة ببطء ... بسام ألصق وجهه بالبـاب

ولوَّح بيده للفتاة .. لم تتحرك .. ظلت ترمقه دامعة العينين .. كأنه يصعد للسماء السابعة أمامها ...

قال بسام همسًا وهو ينظر لصورتها التى تبتعد :

ـ « من الصعب ان أجد من يحبنى بهذا القدر .. والأغرب أننا لا نتكلم نفس اللغة .. ولنا ثقافتان مختلفتان .. »

تذكر علاء أونوابا .. أونوابا التى جعلته يبكى .. يبكى كنافورة دموع ساخنة أمام رجل غريب ..

أونوابا كانت من قبيلة مختلفة .. وكانت تتكلم لغة مختلفة ، ووثنية تقريبًا .. برغم هذا ولد الحب .. الحب الذى ولد ليموت منذ اللحظة الأولى ..

والطائرة تبتعد ...

★ ★ ★

سوف يتلقى بسام حقن اللقاح كاملة . عندما يعضك ذئب هائج فأنت لا تملك الانتظار أو الترقب .. لو أمكنك أن تبحث عن الذئب لتجده حيًّا ، أو تشرح مخه فلا تجد الفيروس .. عندها يمكنك أن تستبعد المرض ، أما فى هذه الحالة فإعطاء اللقاح واجب ..

سوف يتعافى بسام من الجراح برغم فترة طويلة من الحمى والالتهابات ... لكن جراح القلب لا تلتئم بسهولة .. سوف تظل فطوماطا فى موضع متميز فى قلبه لفترة طويلة .. من يدرى ؟

أما عن مصدر العدوى ، ومن نقل المرض للأخ الأول .. فلا أحد يعرف ومن الصعب أن نجيب عن سؤال كهذا ...

★ ★ ★

أنا مزى راوى القبيلة ، ودورى يشبه دور التلفزيون لدى مجتمعات متحضرة أخرى ، وأنتم يا أبنائى لا تعرفون ما هو التلفزيون .. مزى يعرف كل شىء ، وسمع عن الأشياء الباقية . خارج حدود هذه القرية ثمة أشخاص يكلمون بعضهم البعض

عبر الحبال ، أو عن طريق حلى صـغيرة بحجـم قبـضة اليـد يضعونـها على آذانهم .. وهذه الحلى تنقل لهم كلام مــن يوجـد على مسافة ألف قرية . هناك صناديق تتكلم يسهر الناس أمامها ليلهم .

العالم متسع خلف قريتنا الواقعة فى ممباسا ، لكننا لا نـدرك هذا . أنا أعطيكم لمحة من هـذا العالم ؛ ولهـذا تنتظرون الليل كى تسمعوا قصصى .

تمت بحمد الله

سافارى

صـدر من هـذه السـلسـلة :









د. أحمد خالد توفيق

السُّعار

المشكلة هى أن أعراض المرض بدأت.. لو استطعت أن تعطى لقاح الكَلَب - بفتح الكاف واللام - بعد العضة مباشرة أو خلال ستة أيام منها، فعلى الأرجح سوف تنقذ المريض، لكن لحظة بدء الأعراض هى اللحظة الأخيرة قبل انطلاق رصاصة الإعدام..

لم ينج أحد فى تاريخ الطب بعد هذه اللحظة، باستثناء حالات سوف نحكيها لكم بعد قليل..

العدد القادم

قصة بوليسية

الثمن فى مصر 500
وما يعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم

العربيــة الحديثــة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية